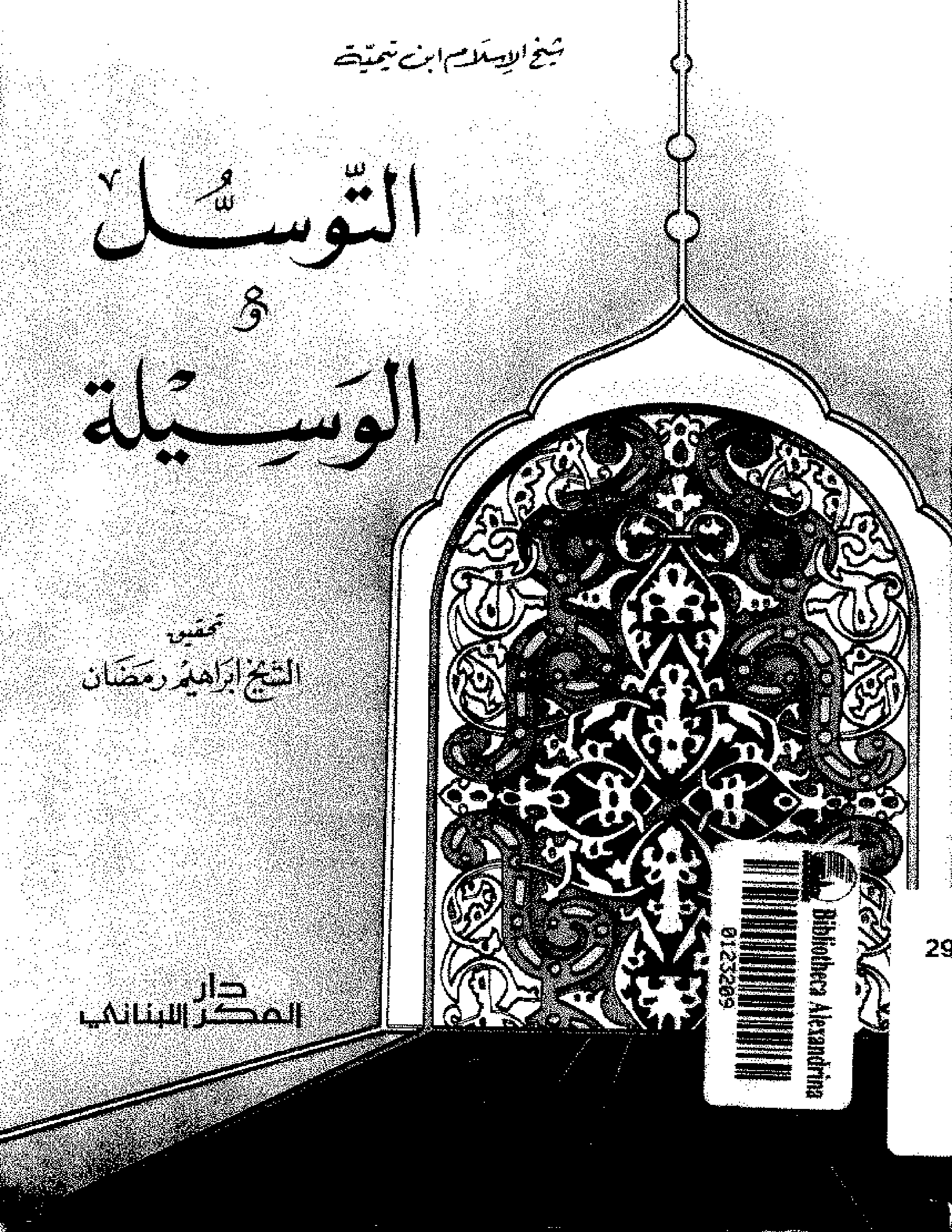


شيخ الإسلام ابن تيمية
التوسل
و
الوسيلة
تحقيق
الشيخ ابراهيم رمضان
دار
الفكر اللبناني
Bibliotheca Alexandrina
0123209
29

التوسل والوسيلة

التوسل والوسيلة

شيخ الإسلام ابن تيمية

تحقيق

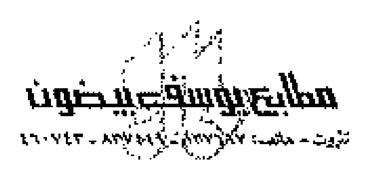
الشيخ ابراهيم رمضان

دار الفكر اللبناني
بيروت

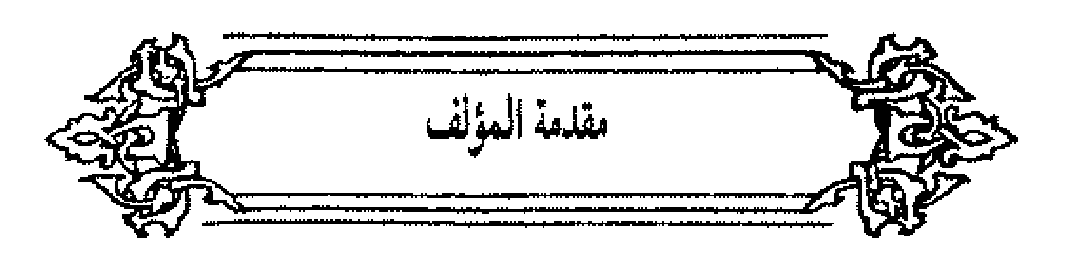
دار
الفكر اللبناني
للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - تجاه [illegible]
هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٤٣٩٢
ص.ب: ٦٤٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلكس: DAFKAR 23643 LE - بيروت لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٢



بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة المؤلف

الحمدُ لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهدِ اللَّهُ فلا مُضلَّ له ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودينِ الحق ليُظهرَه على الدين كله وكفى بالله شهيداً . أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فهدى به من الضلالة ، وبصَّر به من العمى ، وأرشد به من الغيّ ، وفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، فبلّغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبَد ربه حتى أتاه اليقين من ربه . صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما . ففرّق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، وطريق أهل الجنة وطريق أهل النار ، وبين أوليائه وأعدائه . فالحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله . وقد أرسله الله إلى الثقلين : الجن والإنس ، فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به ويتبعه في باطنه وظاهره . والإيمانُ به ومتابعته هو سبيل الله وهو دين الله ، وهو عبادة الله وهو طاعة الله ، وهو طريق أولياء الله وهو الوسيلة التي أمر الله بها عباده في قوله : ﴿ يا أيّها الذينَ آمَنُوا اتقُوا الله وابْتَغُوا إليْهِ الوَسيلةَ ﴾[1] . فابتغاء الوسيلة إلى الله إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد وأتباعه .

وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد في كل حال ، باطناً

(١) سورة المائدة ، الآية : (٣٥) .

وظاهراً ، في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته ، في مشهده ومغيبه ، لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ، ولا بعذر من الأعذار . ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالإيمان به وبطاعته . وهو ﷺ شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلاهم جاهاً عند الله ، وقد قال تعالى عن موسى : ﴿ وكانَ عِنْدَ الله وَجِيهاً ﴾[1] وقال عن المسيح : ﴿ وَجيهاً في الدُّنْيا والآخِرَة ﴾[2] . ومحمد ﷺ أعظم جاهاً من جميع الأنبياء والمرسلين ، لكنْ شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع بهما من شفع له الرسول ودعا له ، فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه ، كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته ، وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى . والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به ، وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة ، ولهذا نُهي عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار ، ونهي عن الاستغفار للمنافقين وقيل له : ﴿ سَواءٌ عَليهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لهُمْ ﴾[3] ولكن الكفار يتفاضلون في الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان في الإيمان ، قال تعالى : ﴿ إنما النسيء زِيَادَةٌ في الكُفْر ﴾[4] ، فإذا كان في الكفار من خف كفره بسبب نصرته ومعونته ، فإنه تنفعه شفاعته في تخفيف العذاب عنه ، لا في إسقاط العذاب بالكلية ، كما في صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : قلت : يا رسول الله فهل نفعتَ أبا طالب بشيء ، فإنه كان يحوطك[5] ويغضب لك ؟ قال : « نعم هو في ضحضاح[6] من نار ، ولولا أنا لكان

(١) سورة الأحزاب ، الآية : (٦٩) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (٤٥) .
(٣) سورة المنافقون ، الآية : (٦) .
(٤) سورة التوبة ، الآية : (٣٧) .
(٥) أي يصونك ويحفظك ويدافع عنك .
(٦) أصل الضحضاح الماء اليسير الذي يكون إلى نحو الكعبين واستعير في النار ، والمعنى أنه في غير مقرها .

في الدرك[1] **الأسفل من النار** » ، وفي لفظ : أن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك ؟ قال : « **نعم ، وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح** » ، وفيه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ذُكر عنده عمه أبو طالب فقال : « **لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه ، يغلي منهما دماغه** » وقال : « **إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو متنعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه** »[2] ، وكذلك ينفع دعاؤه لهم بأن لا يجعل عليهم العذاب في الدنيا، كما كان ﷺ يحكي أن نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يقول : « **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون** » . وروى أنه دعا بذلك : أن أغفر لهم فلا تعجّل عليهم العذاب في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ يُؤاخِذُ الله النّاس بما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دابّة وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى أجَلٍ مُسَمّى** ﴾ ، وأيضاً فقد يدعو لبعض الكفار بأن يهديه الله أو يرزقه فيهديه أو يرزقه ، كما دعا لأم أبي هريرة حتى هداها الله ، وكما دعا لدَوْس فقال : « اللهم اهد دوسا وائت بهم » فهداهم الله ، وكما روى أبو داود أنه استسقى لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقي لهم فاستسقى لهم ، وكان ذلك إحساناً منه إليهم يتألف به قلوبهم ، كما كان يتألفهم بغير ذلك .

وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاهاً عند الله ، لا جاه لمخلوق عند الله أعظم من جاهه ، ولا شفاعة أعظم من شفاعته . لكن دعاء الأنبياء وشفاعتهم ليس بمنزلة الإيمان بهم وطاعتهم ، فإن الإيمان بهم وطاعتهم توجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقاً وعامّا ، فكل من مات مؤمناً بالله ورسوله مطيعاً لله ورسوله كان من أهل السعادة قطعاً ، ومن مات كافراً بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعاً .

وأما الشفاعة والدعاء ، فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع ، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم ولو

---

(١) قال النووي : قالوا : ولجهنم أدراك ، فكل طبقة من طبقاتها تسمى دركاً ، والدرك الأسفل مقرها .

(٢) انظر صحيح مسلم (١/ ١٣٥) .

(٣) سورة فاطر ، الآية : (٤٥) .

كـان الشفيع أعـظم الشفعاء جاهاً ، فـلا شفيع أعـظم من محمد ﷺ ، ثم الخليـل إبراهيم ، وقد دعا الخليل إبراهيم لأبيه واستغفر له كما قال تعالى عنه : ﴿ رَبَّنا اغْفِر لي وَلِوالِدَيّ وللمُؤمنينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾[1] . وقد كـان ﷺ أراد أن يستغفر لأبي طالب اقتداء بإبراهيم[2] ، وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه فأنـزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنَّبِيّ والذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا للمُشْرِكينَ وَلَوْ كانُوا أولي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أنهُمْ أصحَابُ الجحيم﴾[3] ثم ذكر الله عذر إبراهيم فقال: ﴿ وما كانَ اسْتِغْفَارُ إبْراهيمَ لأبيهِ إلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيّاهُ فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ أنّهُ عَدُوٌّ للّهِ تَبَرّأ مِنْهُ إنَّ إبْـراهيمَ لأوّاهٌ حَليمٌ . وما كـانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَـوْماً بَعْـدَ إذْ هَـداهُمْ حَتّى يُبَيّن لَهُمْ مـا يَتّقونَ ﴾ ، وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب أنت وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله عز وجل : إني حرّمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : انظر ما تحت رجليك فينظر ، فإذا هو بذيخ[5] متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » . فهذا لما مـات مشركـاً لم ينفعه استغفار إبراهيم مع عظم جاهه وقدره ، وقد قال تعالى للمؤمنين : ﴿ قد كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبْراهيمَ وَالذينَ مَعَهُ إذْ قالُوا لقَوْمهِمْ إنّا بُرآء منْكُمْ ومِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ، كفَرنا بِكُمْ وبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ العَداوَةُ والبَغْضاء أبَداً حَتّى تُؤمِنُوا بالله

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : (٤١) .

(٢) أخرج الشيخان من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال : أي عم ، قل : لا إله إلاّ الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى آخر شيء كلمهم به هو : على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : (١١٣) .

(٤) سورة التوبة ، الآيتان : (١١٤ و ١١٥) .

(٥) الذيخ : ذكر الضباع الكثير الشعر ، والجمع : أذياخ وذيوخ وذيخة وهي ذيخة وذيخات .

وَحْدَهُ ، إلاَّ قَوْلَ إبراهيمَ لأبيه لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وما أَمْلِكُ لكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيءٍ ، رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلنا وإليْكَ أَنَبْنا وإليْكَ المَصيرُ ، رَبَّنا لا تجْعَلْنا فِتْنَةً للَّذِينَ كَفَرُوا واغْفِر لَنَا رَبَّنا إنَّكَ أنْتَ الْعَزِيزُ الحكِيمُ ﴾[1] فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم ومن اتبعه ، إلا في قول إبراهيم لأبيه : « لأستغفرنَّ لك » فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وكذلك سيد الشفعاء محمد ﷺ ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي » . وفي رواية أن النبي ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال : « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » وثبت عن أنس في الصحيح أن رجلاً قال : يا رسول الله : أين أبي ؟ قال : « في النار » . فلما قفا دعاه فقال : « إن أبي وأباك في النار » . وثبت أيضاً في الصحيح عن أبي هريرة لما أنزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأقْرَبينَ ﴾[2] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص فقال : « يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبُلُّها ببلاها »[3] ، وفي رواية عنه : « يا معشر قريش ، إشتروا أنفسكم من الله ، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت رسول الله ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً » . وعن عائشة لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأقْرَبين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمةَ بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً . سلوني من مالي ما شئتم » . وعن أبي هريرة قال : قام فينا رسول

---

(١) سورة الممتحنة ، الآيتان : (٤ و ٥) .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : (٢١٤) .

(٣) أي سأصلها .

الله ﷺ خطيباً ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : « **لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء يقول : يا رسول الله أغثني ؟ فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول الله أغثني؟ فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت**[1] **فيقول : يا رسول الله أغثني ؟ فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك** » . أخرجاه في الصحيحين وزاد مسلم : « لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك » . وفي البخاري عنه أن النبي ﷺ قال : « **ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها ثغاء فيقول: يا محمد، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد بلغت . ولا يأتي أحدكم ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول : يا محمد ، فأقول لا أملك لك شيئاً ، قد بلغت** » . وقوله هنا ﷺ : « **لا أملك لك من الله شيئاً** » ، كقول إبراهيم لأبيه : ﴿ **لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيءٍ** ﴾[2] .

وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهي نافعةٌ في الدنيا والدين باتفاق المسلمين ، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين ، وقد قيل أن بعض أهل البدعة ينكرها . وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم ، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية ، وقال هؤلاء : من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها ، وعند هؤلاء ما ثمَّ إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب . وأما الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقرّون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن الله يخرج من النار قوماً بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم ، يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ ويخرج آخرين بشفاعة غيره ، ويخرج قوماً بلا شفاعة .

---

(١) أي عليه حقوق من ذهب وفضة .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية : (٤) .

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقوا يوماً لا تَجْـزِي نَفس عن نفْسٍ شَيئاً ولا يُقْبَلُ منها شفاعةٌ ولا يُؤْخَذُ منها عَدلٌ ﴾[1] وبقوله : ﴿ ولا يُقْبَـلُ منها عَدْلٌ ولا تَنْفَعُها شفاعةٌ ﴾[2] وبقوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يأتيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شفاعة ﴾[3] وبقوله : ﴿ مـا للظَّالِمينَ مِنْ حَميم ولا شَفِيعٍ يُـطَاع ﴾[4] وبقوله : ﴿ فما تَنْفَعُهُمْ شفاعةُ الشافعين ﴾[5] .

وجـواب أهل السنَّـة أن هـذا لعله يـراد بـه شيئـان : أحـدهمـا أنهـا لا تنفـع المشركين ، كما قال تعالى في نعتهم : ﴿ مـا سَلَكَكُمْ في سَقَر * قـالوا لَمْ نَـكُ مِنَ المصَلِّين * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِين * وكُنّـا نَخُوضُ مَـعَ الخَائضين * وَكُنّـا نُكَذِّبُ بيـوم الدِّين * حَتَّى أتـانا اليَقينَ * فَمـا تَنْفَعُهُم شفَاعَـةُ الشّـافِعين ﴾[6] فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفاراً .

والثاني : أن يراد بذلك نفي الشفاعة التي أثبتها أهل الشرك ، ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين ، الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض ، فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة ، وكما يعامل المخلوق بالمعاوضة ، فالمشركون كـانوا يتخـذون من دون الله شفعاء من المـلائكة والأنبيـاء والصالحين ، ويصـورون تمـاثيلهم فيستشفعون بهـا ويقـولـون : هؤلاء خـواص الله ، فنحن نتـوسـل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ، كما يُتوسَّل إلى الملوك بخواصِّهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم ، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك ، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة . فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذنه ﴾[7] ، وقال : ﴿ وكَمْ مِنْ مَلَك في

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٤٨) .
(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٢٣) .
(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٤) .
(٤) سورة غافر ، الآية : (١٨) .
(٥) سورة المدثر ، الآية : (٤٨) .
(٦) سورة المدثر ، الآيات : (٤٢ ـ ٤٨) .
(٧) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٥) .

السّموات لا تُغْني شفاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاَّ مِنْ بَعْد أنْ يأذَنَ اللَّهُ لِمنْ يَشاءُ وَيَرْضَى ﴾[1] وقال عن الملائكة : ﴿ وقالُوا اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وَهُمْ بِأمْره يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ ما بَيْنَ أيديهم وما خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقون ﴾[2] وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأَرضِ ، ومَا لَهُمْ فيها مِنْ شِركٍ وما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهير * ولا تَنْفَعُ الشَّفاعةُ عِنْدَهُ إلاَّ لمن أذِن لَهُ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله ما لا يَضُرُّهم ولا يَنْفَعُهم وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شفعاؤنا عِنْدَ الله ، قُلْ أتنَبِّئُونَ الله بما لا يَعْلَم في السَّموات ولا في الأرض ، سُبْحانه وتَعالى عَمَّا يُشْرِكُون ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وأنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهم لَيْسَ لَهُمْ من دُونه وَليٌّ ولا شَفيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّموات والأرضَ وما بَيْنَهُما في سِتَّة أيَّام اسْتَوَى عَلَى العَرْش ما لَكُمْ مِنْ دُونِه مِنْ وَليٍّ وَلاَ شَفيع أفَلا تَتَذَكَّرُون ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ ولا يَملِكُ الَّذين يَدْعونَ من دُونه الشَّفاعةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بالحقِّ وهم يَعْلَمُون ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ ولقد جِئْتُمُونا فُرادَى كما خَلَقْناكُمْ أوَّلَ مَرَّة وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْنَاكُمْ وراءَ ظُهُورِكُمْ ، وما نَرَى معكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذينَ زَعَمْتُمْ أنَّهُمْ فيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَد تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُون ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ أمِ اتَّخَذُوا من دُون الله شُفَعاءَ قُل أوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً ولا يَعْقِلُون * قل لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جميعاً لَهُ مُلْكُ السَّموات والأرض ثمّ إليه تُرجَعُون * وإذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأزَّت قُلُوبُ الَّذينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخرة وإذا ذُكِرَ الَّذِينَ من دُونه إذا هُمْ

---

(1) سورة النجم ، الآية : (٢٦) .
(2) سورة الأنبياء ، الآيات : (٢٦ ـ ٢٨) .
(3) سورة سبأ ، الآيتان : (٢٢ و ٢٣) .
(4) سورة يونس ، الآية : (١٨) .
(5) سورة الأنعام ، الآية : (٥١) .
(6) سورة السجدة ، الآية : (٤) .
(7) سورة الزخرف ، الآية : (٨٦) .
(8) سورة الأنعام ، الآية : (٩٤) .

يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأصواتُ للرَّحْمنِ فلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً * يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلاَّ مَن أذِنَ لَهُ الرَّحْمنِ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾[2] وقال صاحب يس : ﴿ ومـا لِيَ لا أعْبُدُ الَّـذي فَطَرَني وَإليـه تُـرجَعُون * أأتَّخِذُ منْ دُونـه آلهةً إنْ يـردنِ الرَّحْمنُ بضُرٍ لا تُغْنِ عَنِّي شفاعَتُهُمْ شَيئاً ولا يُنْقِذُون * إنِّي إذاً لَفِي ضَلالٌ مُبين * إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فاسْمَعُون ﴾[3] .

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا : استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم ، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفـع بهم بعد ممـاتهم ليشفعوا لنا إلى الله ، وصوَّروا تمـاثيلهم فعبـدوهم كذلك ، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفَّرهم بها . قال الله تعالى عن قومِ نوحِ وقالوا : ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَـذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعـاً ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أضَلُّوا كثيراً ﴾[4] قال ابن عباس وغيـره : هؤلاء قوم صـالحون كانوا في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبـورهم ثم صوروا تمـاثيلهم فعبدوهم ، وهـذا مشهور في كتب التفسيـر والحديث وغيـرها كـالبخاري وغيـره ، وهذه أبـطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ذريعتها ، حتى لعن من اتخـذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلي فيهـا لا يستشفع بهم ، ونهى عن الصـلاة إلى القبور ، وأرسل علي بن أبي طالب فأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سوَّاه ، ولا تمثالاً إلا طمسه ومحاه ، ولعن المصورين . وعن أبي الهياج الأسـدي : قال لي علي ابن أبي طالب : إني لأبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألاَّ تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سوَّيته . وفي لفظ : ولا صورة إلا طمستها[5] . أخرجه مسلم .

---

(١) سورة الزمر ، الآيات : (٤٣ ـ ٤٥) .

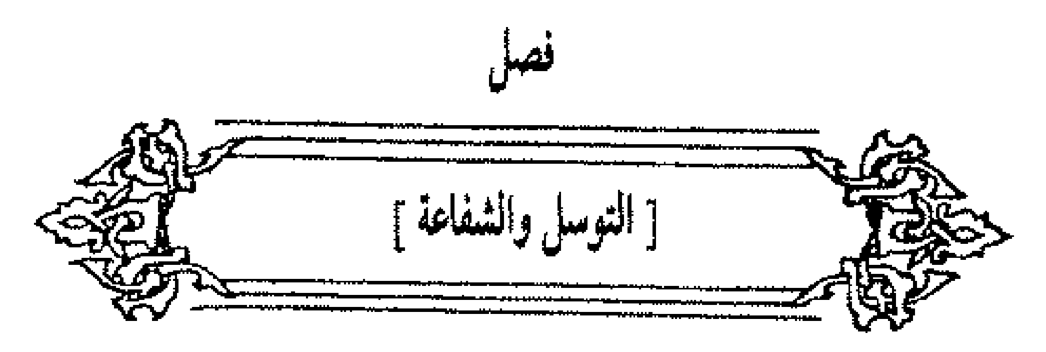
(٢) سورة طه ، الآيتان : (١٠٨ و ١٠٩) .

(٣) الآية يس ، الآيات : (٢٢ ـ ٢٥) .

(٤) سورة نوح ، الآيتان : (٢٣ و ٢٤) .

(٥) وأخرج أبو داود في كتاب الجنائز باب في تسوية القبر (٣/٥٤٨) برقم ٣٢١٨ عن أبي هياج الأسدي قال : بعثني علي قال : أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا أدع قبراً مشرفاً إلاَّ سويته ، ولا تمثالاً إلا طمسته .

فصل



[التوسل والشفاعة]

ولفظ (التوسل) قد يراد به ثلاثة أمور ، [و][1] يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين : أحدهما : هو أصل الإيمان والإسلام ، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته[2] .

والثاني : دعاؤه وشفاعته ، وهذا أيضاً نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين ، ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل مرتداً ، ولكن التوسل بالإيمان به وبطاعته هو أصل الدين ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام للخاصة والعامة ، فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة . وأما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضاً كافر ، لكن هذا أخفى من الأول ، فمن أنكره عن جهل عُرِّف ذلك ، فإن أصر على إنكاره فهو مرتد .

أما دعاؤه وشفاعته في الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة ، وأما الشفاعة يوم القيامة ، فمذهب أهل السنة والجماعة ـ وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم ـ أن له شفاعات يوم القيامة خاصة وعامة ، وأنه يشفع فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر . ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون دون أهل الشرك ، ولو كان المشرك محباً له معظماً له لم تنقذه شفاعته من النار ، وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به . ولهذا لما كان أبو طالب

---

(١) زيدت على النص لوضوح العبارة .

(٢) أي التوسل بالرسول ﷺ وطاعته .

وغيره يحبونه ولم يقرُّوا بالتوحيد الذي جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أنه قال : قلت: يا رسول الله : أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟. فقال : « **أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه** » . وعنه في صحيح مسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « **لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجَّل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً** » وفي السنن عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخلَ نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً** » وفي لفظ قال : « **ومن لقي الله لا يشرك به شيئاً فهو في شفاعتي** » .

وهذا الأصل وهو التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره ، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ **واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِنْ رُسلنَا : أَجَعَلْنَا مِنْ دُون الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُون** ﴾[1] ؟ وقال تعالى : ﴿ **وما أرْسَلنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول إلاَّ نُوحي إليه أنَّهُ لا إله إلاَّ أنا فاعبدون** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **ولقد بَعَثْنا في كُلِّ أمَّة رَسُولاً أن اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنهُمْ مَنْ حَقَّت عَلَيْه الضَّلالة** ﴾[3] . وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه : ﴿ **أعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إله غَيْره** ﴾[4] وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « **بعثت بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري . ومن تشبه بقوم فهو منهم** » .

والمشركون من قريش وغيرهم ـ الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي ﷺ دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار ـ كانوا مقرِّين بأن الله وحده خلق

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : (٤٥) .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : (٢٥) .
(٣) سورة النحل ، الآية : (٣٦) .
(٤) سورة هود ، الآيتان : (٥٠ و ٦١) .

السموات والأرض كما قال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ، قُلِ الحمدُ لله بَلْ أكثرهُمْ لا يعلمون ﴾[1] وقال : ﴿ ولئنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ؟ لَيَقُولَنَّ الله . فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[2] ؟ وقال : ﴿ قُلْ لِمن الأرضُ وَمَنْ فيها إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون * سَيَقُولُونَ للهِ ، قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَبُّ السَّمواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرشِ العَظيم * سَيَقُولونَ للهِ ، قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ يُجِيرُ ولا يُجارُ عَلَيهِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولونَ للهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُون * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بالحَقِّ وَإنَّهم لَكَاذِبُون * ما اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَدٍ وما كَانَ مَعهُ من إلهٍ إذاً لَذَهَبَ كُل إله بما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وسُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُون ﴾[3] .

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرّين بأن آلهتهم مخلوقة ، ولكنهم يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى : ﴿ ويعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُم ولا يَنْفَعُهُمْ ويَقُولُونَ هؤُلاء شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُون اللَّهَ بما لا يَعْلَمُ في السَّمواتِ وَلاَ في الأرض سُبْحَانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللَّهِ العَزيز الحكيم * إنَّا أنزلنا إليْكَ الكِتابَ بالحَقِّ فاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ألا لله الدِّينُ الخالصُ ، وَالذينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أولياءَ ما نَعْبُدُهم إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللَّهِ زُلْفى إنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فيما هُم فيهِ يَخْتَلِفُونَ . إنَّ اللَّهَ لا يَهْدي مَن هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[5] وكانوا يقولون في تلبيتهم :

لبيكَ لا شريكَ لكَ، إلا شريكاً هو لكَ، تملكه وما ملكَ

وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً من أنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ من شركاءَ فيما رَزَقْناكُم فَأَنْتُمْ فيهِ سَواءٌ تخافُونَهُمْ كخيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، كَذلِكَ نُفَصِّلُ

---

(١) سورة لقمان ، الآية : (٢٥) .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية : (٦١) .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيات : (٨٤ ـ ٩١) .
(٤) سورة يونس ، الآية : (١٨) .
(٥) سورة الزمر ، الآيات : (١ ـ ٣) .

الآيات لقومْ يَعْقِلُون * بَلْ اتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَمُوا أهواءَهُمْ بغَيْرِ عِلْم ، فَمَنْ يَهدي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وما لَهُمْ من ناصرينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينَ حَنيفاً فطرَةَ الله الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عليها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ الله ، ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلكنَّ أكثرَ النَّاس لا يَعْلَمُون * مُنِيبينَ إليه وَاتَّقُوهُ وأقيمُوا الصَّلاةَ ولا تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكين * منَ الَّذين فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكـانوا شِيَعَاً كُلُّ حُزب بما لَدَيْهِم فَرِحُون ﴾[1] بين سبحانه بالمثل الذي ضربه لهم أنه لا ينبغي أن يجعل مملوكه شريكه فقال : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضاً ، فإذا كان أحدكم لا يرض أن يكون مملوكه شريكه فكيف ترضون لي ما لا ترضونه لأنفسكم ؟ وهذا كما كانوا يقولون : له بنات : فقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ للَّهِ ما يَكْرَهُون وتَصِفُ ألسِنَتُهُمْ الكذبَ أنَّ لَهُمْ الحسنى لا جَرَمَ أنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأنَّهُمْ مُفْرَطُون ﴾[2] وقد قـال تعالى : ﴿ وإذا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظيمٌ * يَتَوارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أيُمْسكهُ عَلَى هُون أم يَدُسُّهُ في التُّرَاب ، ألا ساءَ ما يَحْكُمُونَ * للَّذينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخرةِ مَثَلُ السَّوء وَلله المثَلُ الأعلى وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴾[3] .

[أصناف المشركين] :

والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله صنفان : قوم نوح وقـوم إبراهيم . فقوم نوح كان أصـل شركهم العكـوف على قبور الصـالحين ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم . وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر . وكل من هؤلاء وهؤلاء يعبدون الجن ، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء ، وقـد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجنَّ ، فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم . قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُـرُهُمْ جَميعاً ثُمَّ يَقُـولُ للْمَلائكة أهـؤلاء إيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ * قالُوا سُبْحَانك أنْت وَلِيُّنا من دُونِهم بَلْ كانُوا يَعْبُـدُونَ الجِنَّ أكثرهُمْ بهم مُؤمنُـون ﴾[4] والمـلائكـة لا تعينهم على الشـرك لا في المحيـا ولا في الممات ولا يرضون بذلك ، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم

(١) سورة الروم ، الآيات : (٢٨ ـ ٣٢) .
(٢) سورة النحل ، الآية : (٦٢) .
(٣) سورة النحل ، الآيات : (٥٨ ـ ٦٠) .
(٤) سورة سبأ ، الآيتان : (٤٠ و ٤١) .

في صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم : أنا إبراهيم ، أنا المسيح ، أنا محمد ، أنا الخضر ، أنا أبو بكر ، أنا عمر ، أنا عثمان ، أنا علي ، أنا الشيخ فلان . وقد يقول بعضهم عن بعض : هذا هو النبي فلان ، أو هذا هو الخضر ، ويكون أولئك كلهم جنًا يشهد بعضهم لبعض . والجن كالإنس ، فمنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم العاصي، وفيهم الجاهل العابد[1] ، فمنهم من يحب شيخا فيتزيّا في صورته ويقول : أنا فلان . ويكون ذلك في برِّية ومكان قفر فيطعم ذلك الشخص طعاماً ويسقيه شراباً أو يدله على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة فيظن ذلك الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحي فعل ذلك ، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته أو هذا مَلَكٌ جاء على صورته . وإنما يكون ذلك جنياً ، فإن الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان . وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ من دُونه فلا يَمْلكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ولا تَحْويلاً * أولئك الَّذينَ يَدْعُون يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أيُّهُمْ أقْربُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إنَّ عَذابَ رَبِّكَ كان مَحْذُوراً﴾[2]. قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح ، فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله ، كما أن الذين يعبدونهم عباد الله ، وبيّن أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين .

والمشركون من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا ، فإذا أتينا قبر أحد طلبنا منه أن يشفع لنا ، فإذا صورنا تمثاله ـ والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى في كنائسهم ـ قالوا : فمقصودنا بهذه التماثيل تذكُّر أصحابها وسيرهم ونحن نخاطب هذه التماثيل، ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله . فيقول أحدهم : يا سيدي فلاناً أو يا سيدي جرجس أو بطرس أو يا ستي الحنونة مريم أو يا سيدي الخليل أو موسى بن عمران أو غير ذلك ، اشفع لي إلى ربك . وقد يخاطبون الميت عند قبره . أو يخاطبون الحي وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضراً حياً وينشدون قصائد يقول

---

(١) قال تعالى في سورة الجن ، الآية : (١١) : ﴿ وأنَّا منَّا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ .

(٢) سورة الإسراء ، الآيتان : (٥٦ و ٥٧) .

أحدهم فيها : يا سيدي فلاناً! أنا في حسبك ، أنا في جوارك ، اشفع لي إلى الله ، سل الله لنا أن ينصرنا على عدونا ، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة ، أشكو إليك كذا وكذا فسل الله أن يكشف هذه الكربة . أو يقول أحدهم : سل الله أن يغفر لي . ومنهم من يتأول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾(1) ويقولون : إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة ، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين ، فإن أحداً منهم لم يطلب من النبي ﷺ بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئاً ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم ، وإنما ذكر ذلك من ذكر من متأخري الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضي الله عنه سيأتي ذكرها وبسط الكلام عليها إن شاء الله تعالى .

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم ، هو أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب ، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾(2) فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال ـ ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم ـ هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولاً ولا أنزل به كتاباً ، وليس هو واجباً ولا مستحباً باتفاق المسلمين ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين ، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد ، ويذكرون فيه حكايات ومنامات ، فهذا كله من الشيطان . وفيهم من ينظم القصائد في دعاء الميت والاستشفاع به والاستغاثة ، أو يذكر ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصالحين ، فهذا كله ليس بمشروع لا واجب ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين . ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع بدعةً سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين ، فإن الله لا يُعبد إلا بما هو واجب أو مستحب . وكثير من الناس يذكرون في هذه الأنواع من الشرك منافعَ

---

(1) سورة النساء ، الآية : (٦٤) .

(2) سورة الشورى ، الآية : (٢١) .

ومصالح ، ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأي أو الذوق ، أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك .

وجواب هؤلاء من طريقين : أحدهما الاحتجاج بالنص والإجماع ، والثاني : القياس والذوق والاعتبار ببيان ما في ذلك من الفساد ، فإن فساد ذلك راجح على ما يظن فيه من المصلحة .

أما الأول فيقال : قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام وبإجماع سلف الأمة وأئمتها أن ذلك ليس بواجب ولا مستحب ، وعلم أنه لم يكن النبي ﷺ بل ولا أحد من الأنبياء قبله للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ويستشفعوا بهم ، لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم ، فلا يقول أحد : يا ملائكة الله اشفعوا لي عند الله ، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا . وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين : يا نبي الله ، يا رسول الله ! ادع الله لي ، سل الله لي ، استغفر الله لي ، سل الله لي أن يغفر لي أو يهديني أو ينصرني أو يعافيني ، ولا يقول : أشكو إليك ذنوبي أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي ، أو أشكو إليك فلاناً الذي ظلمني ، ولا يقول : أنا نزيلك أنا ضيفك أنا جارك ، أو أنت تجير من يستجيرك ، أو أنت خير معاذ يستعاذ به ، ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور ، ولا يكتب أحد محضراً أنه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر ، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين ، كما يفعله النصارى في كنائسهم ، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو في مغيبهم ، فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام وبالنقل المتواتر وبإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يشرع هذا لأمته . وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئاً من ذلك ، بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك ، ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا ذكر أحد من الأئمة لا في مناسك الحج ولا غيرها أنه يستحب لأحد أن يسأل النبي ﷺ عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته أو يشكو إليه ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين . وكان أصحابه يُبتلون بأنواع البلاء بعد موته ، فتارة بالجدب ، وتارة بنقص الرزق ، وتارة بالخوف وقوة العدو ، وتارة بالذنوب والمعاصي ، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ﷺ

ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول : نشكو إليك جدب الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب ، ولا يقول : سل لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم ، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين ، فليست واجبة ولامستحبة باتفاق أئمة المسلمين . وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة ، وهي ضلالة باتفاق المسلمين . ومن قال في بعض البدع إنها بدعة حسنة فإنما ذلك إذا قام دليل شرعي أنها مستحبة ، فأما ما ليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين إنها من الحسنات التي يتقرب بها إلى الله ، ومن تقرب إلى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمرَ إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان وسبيله من سبيل الشيطان ، كما قال عبد الله بن مسعود : خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال : « **هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه** » ثم قرأ : ﴿ **وَأَنَّ هذا صِراطي مُسْتَقيماً فاتَّبِعُوهُ ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ** ﴾[1] .

فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله أن يتبعه ، ولا يخالف السنة المعلومة ، وسبيلَ السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان باتباع من خالف السنة والإجماع القديم ، لا سيما وليس معه في بدعته إمام من أئمة المسلمين ، ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين ، ولا من يعتبر قوله في مسائل الإجماع والنزاع فلا ينخرم الإجماع بمخالفته ، ولا يتوقف الإجماع على موافقته . ولو قدر أنه نازع في ذلك عالم مجتهد لكان مخصوصاً بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الأئمة قبله ، فكيف إذا كان المنازع ممن ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعي ، وإنما اتبع من تكلم في الدين بلا علم ، ويجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . بل إن النبي ﷺ مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجباً ولا مستحباً ، فإنه قد حرَّم ذلك وحرَّم ما يفضي إليه كما حرَّم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس : « **إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك** » . وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال قبل موته : « **لعن الله اليهود والنصاري اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » يحذِّر ما

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٥٣) .

فعلوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً[1] .

واتخاذ المكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيره كما تبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجداً إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين ، فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء عنده ، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله . والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة ، راجحة ينهى عنه كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة[2] لما في ذلك من المفسدة الراجحة وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك . وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات ، ولهذا تنازع العلماء في ذوات الأسباب فسوغها كثير منهم في هذه الأوقات ، وهو أظهر قولي العلماء لأن النهي إذا كان لسد الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة ، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه في هذه الأوقات ويفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها ، فأبيحت لما فيها من المصلحة ، بخلاف ما لا سبب له فإنه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا تفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة ، وفيه مفسدة توجب النهي عنه . فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها ، كان معلوماً أن دعوة الشمس ـ والسجود لها هو محرم في نفسه ـ أعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضي إلى دعاء الكواكب . كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، فنهى عن

---

(١) أخرج أبو داود في كتاب الجنائز باب في البناء على القبر (٣/٥٥٣) برقم ٣٢٢٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .
وأخرجه البخاري في كتاب الصلاة ومسلم في كتاب المساجد والنسائي في كتاب الجنائز .

(٢) والأوقات التي نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة فيها هي عند ارتفاع الشمس وعند استوائها وعند غروبها . أخرج أبو داود عن العلاء بن عبد الرحمن أنه قال : دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر فقام يصلي ، فلمّا فرغ من صلاته ذكرنا تعجيل الصلاة أو ذكرهما ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تلك صلاة المنافقين ، تلك صلاة المنافقين ، تلك صلاة المنافقين ، يجلس أحدهم حتى إذا اصفرَّت الشمس فكانت بين قرني شيطان ـ أو ـ على قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله منها إلاَّ قليلاً » .

قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك إلى دعائهم والسجود لهم ، لأن دعاءهم والسجود لهم أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد .

[زيارة القبور] :

ولهذا كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين : زيارة شرعية وزيارة بدعية . فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له ، فالقيام على قبره من جنس الصلاة عليه ، قال الله تعالى في المنافقين : ﴿ ولا تُصَلِّ عَلَى أحد منْهُمْ ماتَ أبَداً ولا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾[1] فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون . فلما نهى عن هذا وهذا لأجل هذه العلة رهي الكفر دل ذلك على انتفاء هذا النهي عند انتفاء هذه العلة . دل تخصيصهم بالنهي على أن غيرهم يصلي عليه ويقام على قبره ، إذ لو كان هذا غير مشروع في حق أحد لم يخصوا بالنهي ولم يعلل ذلك بكفرهم . ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة ، فكان النبي ﷺ يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته ، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول : « سلوا له التثبيت فإنه الآن يسئل » رواه أبو داود وغيره ، وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحد ويعلّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنّا بعدهم » وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » والأحاديث في ذلك صحيحة معروفة . فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم ، وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة أنه قال : أتى رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى وبكى من حوله ثم قال : « استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة »[2] فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو

---

(1) سورة التوبة ، الآية : (٨٤) .

(2) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه وأخرجه النسائي في كتاب الجنائز وأخرجه الترمذي برقم ١٠٥٤ .

كان المقبور كافراً ، بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع إلا في حق المؤمنين .

وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج ، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة ، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجْوَبُ للدعاء . فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره ، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك ، ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً منهياً عنه ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبي ﷺ : « **اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » وقال : « **قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » يحذِّر ما صنعوا . وقال : « **إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك** » . فإذا كان هذا محرماً وهو سبب لسخط الرب ولعنته فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات ونيل الطَّلبات وقضاء الحاجات !؟ وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم .

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخاري وفي كتب التفسير وقصص الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ **قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولا تذرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً * ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً** ﴾[1] إن هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، قال ابن عباس : ثم صارت هذه الأوثان في قبائل العرب .

وقد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسفة الدهرية للشرك شيئاً آخر ذكروه في زيارة القبور كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أخذ عنه كصاحب الكتب المضنون بها وغيرها ، ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم ، فإنهم لا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ولا أنه يعلم الجزئيات ويسمع أصوات عباده ويجيب دعاءهم ، فشفاعة

---

(١) سورة نوح ، الآية : (٢٣) .

الأنبياء والصالحين على أصلهم ليست كما يعرفه أهل الإيمان من أنها دعاء يدعو به الرجل الصالح فيستجيب الله دعاؤه ، كما أن ما يكون من إنزال المطر باستسقائهم ليس سببه عندهم إجابة دعائهم ، بل هم يزعمون أن المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية فيقولون : إن الإنسان إذا أحب رجلاً صالحاً قد مات لا سيما إن زار قبره فإنه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعّال عندهم أو النفس الفلكية ، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلك ـ بل وقد لا تعلم الروح المستشفع بها بذلك ـ ومثلوا ذلك بالشمس إذا قابلها مرآة فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ، ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة ، وإن قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة ، فهكذا الشفاعة عندهم ، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم . وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على من تدبره ، ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم ، وجعل القبور أوثاناً هو أول الشرك ، ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ما يظن أنه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكلمه وعانقه ، وهذا يرى عند قبور الأنبياء وغيرهم ، وإنما هو شيطان ، فإن الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعي أحدهم أنه النبي فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذباً في ذلك .

وفي هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهي كثيرة جداً ، والجاهل يظن أن ذلك الذي رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هو المقبور أو النبي أو الصالح وغيرهما ، والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان ويتبين ذلك بأمور : أحدهما أن يقرأ آية الكرسي بصدق ، فإذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ في الأرض أو احتجب ، ولو كان رجلاً صالحاً أو ملكاً أو جنياً مؤمناً لم تضره آية الكرسي ، وإنما تضره الشياطين، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة لما قال له الجني : أقرأ آية الكرسي إذا أويت إلى فراشك فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبي ﷺ : « صدقك وهو كذوب » . ومنها أن يستعيذ بالله من الشياطين . ومنها أن يستعيذ بالمعوذة الشرعية ، فإن الشياطين كانت تعرض

للأنبياء في حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم ، كما جاءت الجن إلى النبي ﷺ بشعلة من النار تريد أن تحرقه فأتاه جبريل بالمعوَّذة المعروفة التي تضمنها الحديث المروي عن أبي التياح أنه قال : سأل رجل عبد الرحمن بن خنبش وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبي ﷺ : كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين ؟ قال : تحدرت عليه من الشعاب والأودية ، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد إن يحرق بها رسول الله ﷺ ، قال : فرعب رسول الله ﷺ فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد قل ؟ قال: ما أقول؟ قال: قل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَر ولا فاجر، من شر ما خلق وذَرَأ وبَرَأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق يطرق ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن قال : فطفئت نارهم وهزمهم الله عز وجل . وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن **عفريتاً من الجن جاء يفتك بي البارحة ليقطع عليَّ صلاتي ، فأمكنني الله عز وجل منه فذَعَته**[1] **أردت أن آخذه فأربطه إلى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه ، كما ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَد مِنْ بَعدي﴾**[2] **فردَّه الله تعالى خاسئاً**». وعن عائشة أن النبي ﷺ كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه ﷺ فصرعه فخنقه ، قال رسول الله ﷺ : « **حتى وجدت برد لسانه على يدي، ولولا دعوة سليمان لأصبح ذلك موثقاً حتى يراه الناس**» أخرجه النسائي[3] وإسناده على شرط البخاري كما ذكر أبو عبد الله المقدسي في مختاره الذي هو خير من صحيح الحاكم ، وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان يصلي صلاة

---

(١) بمعنى خنقته .

(٢) سورة ص ، الآية : (٣٥) .

(٣) أخرج النسائي في كتاب الصلاة باب لعن إبليس والتعوذ بالله منه في الصلاة (٣/١٣) عن أبي إدريس الخولاني عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلي ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ثم قال : « ألعنك بلعنة الله » ثلاثاً ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلمَّا فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله : قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ! قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله ، فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أن آخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً بها يلعب به ولدان أهل المدينة » .

الصبح وهو خلفه ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « **لو رأيتموني وإبليس ، فأهويت بيدي ، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل** » رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه . وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أنه قال : قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول : « **أعوذ بالله منك** » ثم قال : « **ألعنك بلعنة الله ثلاثاً** » وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من صلاته قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول شيئاً في الصلاة لم نسمعك تقول قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك . قال : « **إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فاستأخر . ثم أردت أن آخذه ، ولولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان المدينة** » . فإذا كانت الشياطين تأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم ، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد ، فكيف من هو دون الأنبياء ؟ فالنبي ﷺ قمع شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال ، ومن أعظمها الصلاة والجهاد . وأكثر أحاديث النبي ﷺ في الصلاة والجهاد ، فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء .

وأما من ابتدع ديناً لم يشرعوه ، فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأمته ، وابتدع الغلوّ في الأنبياء والصالحين والشرك بهم فإن هذا يتلعب به الشياطين ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾[٢] .

ومنها أن يدعو الرائي بذلك ربَّه تبارك وتعالى ليبين له الحال . ومنها أن يقول لذلك الشخص : أأنت فلان ؟ ويقسم عليه بالأقسام المعظمة ويقرأ عليه قوارع القرآن

---

(١) سورة النحل ، الآيتان : (٩٩ و ١٠٠) .

(٢) سورة الحجر ، الآية : (٤٢) .

إلى غير ذلك من الأسباب التي تضر الشياطين .

وهذا كما أن كثيراً من العبّاد يرى الكعبة تطوف به ، ويرى عرشاً عظيماً وعليه صورة عظيمة ، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ، ويظن أن تلك الصورة هي الله تعالى وتقدس ، ويكون ذلك شيطاناً . وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس ، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر[1] في حكايته المشهورة حيث قال : كنت مرة في العبادة ، فرأيت عرشاً عظيماً وعليه نور ، فقال لي : يا عبد القادر أنا ربك ، وقد حلَّلتُ لك ما حرَّمتُ على غيرك . قال : فقلت له : أأنت الله الذي لا إله إلاَّ هو ! إخسأ يا عدو الله . قال : فتمزَّق ذلك النور وصار ظلمة وقال : يا عبد القادر ، نجوتَ مني بفقهك في دينك وعلمك وبمنازلاتك في أحوالك . لقد فتنتُ بهذه القصة سبعين رجلاً . فقيل له : كيف علمت أنه الشيطان ؟ قال: بقوله لي : حلَّلتُ لك ما حرمت على غيرك وقد علمت أن شريعة محمد ﷺ لا تنسخ ولا تبدل ، ولأنه قال : أنا ربك ، ولم يقدر أن يقول أنا الله الذي لا إله إلاَّ أنا .

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئيَّ هو الله ، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى في اليقظة ، ومستندهم ما شاهدوه . وهم صادقون فيما يخبرون به

---

(١) هو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست بن أبي عبد الله بن يحيى بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الحسوزي بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب الجيلاني نسبة إلى جيل وهي بلاد متفرقة من وراء طبرستان ، وبها ولد ، ويقال لها أيضاً جيلان وكيلان ، وهو سبط أبي عبد الله الصومعي من جلة مشايخ جيلان ، كان رضي الله عنه نحيف الجسم عريض الصدر عريض اللحية أسمر مدور الحاجبين ذا صوت جهوري وسمت بهي ، ولما ترعرع وعلم أنه طلب العلم فريضة شمر ساق الاجتهاد في تحصيله ، وسارع في تحقيق فروعه وأصوله بعد أن اشتغل بالقرآن حتى أتقنه ، ثم تفقَّه في مذهب الإمام أحمد بن حنبل على أبي الوفاء بن عقيل وأبي الخطاب وأبي الحسين محمد ابن القاضي بن أبي يعلى والمبارك المخرمي، وسمع الحديث من جماعة وعلوم الأدب من آخرين ، وصحب حماد وأخذ عنه علم الطريقة ، وفاق أهل وقته في علوم الديانة ووقع له القبول التام مع القدم الراسخ في المجاهدة وقطع دواعي الهوى والنفس ، وتصدر للتدريس والوعظ والتذكير ، وصنف وأملى ، وتلمذ له أكثر الفقهاء في زمنه ، ومآثره كثيرة ، توفي رحمه الله تعالى سنة إحدى وستين وخمسمائة ليلة السبت العاشر من ربيع الآخر ودفن في رواق مدرسته .

ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان ، وهذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العبّاد ، يظن أحدُهم أنه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا ، لأن كثيراً منهم أري ما ظن أنه الله ، وإنما هو شيطان ، وكثير منهم رأى من ظن أنه نبي أو رجل صالح أو الخضر وكان شيطاناً ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي** » فهذا في رؤية المنام لأن الرؤية في المنام تكون حقاً وتكون من الشيطان فمنعه الله أن يتمثل به في المنام ، وأما في اليقظة فلا يراه أحد بعينه في الدنيا، فمن ظن أن المرئي هو الميت فإنما أُتيَ من جهله، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

وبعض من رأى هذا - أو صدق من قاله إنه رآه - اعتقد أن الشخص الواحد يكون بمكانين في حالة واحدة فخالف صريح المعقول ، ومنهم من يقول هذه رقيقة ذلك المرئي أو هذه روحانيته أو هذا معناه لشكل ، ولا يعرفون أنه جنّي تصوَّر بصورته . ومنهم من يظن أنه مَلَكَ ، والملك يتميز عن الجني بأمور كثيرة ، والجن فيهم الكفار والفساق والجهال، وفيهم المؤمنون المتبعون لمحمد ﷺ تسليماً، فكثير ممن لم يعرف أن هؤلاء جن وشياطين يعتقدهم ملائكة ، وكذلك الذين يدعون الكواكب وغيرها من الأوثان تتنزل على أحدهم روح يقول هي روحانية الكواكب ويظن بعضهم أنه من الملائكة وإنما هو من الجن والشياطين يغوون المشركين .

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان ، فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكاشف بها ، وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك وتارة يجلبون له من يريد من الإنس ، وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك ، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً ، وتارة يحملونه في الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد ، فمنهم من يذهبون به إلى مكة عشية عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة ، مع أنه لم يحج حج المسلمين : لا أحرم ولا لبى ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال . ومنهم من يذهب إلى مكة ليطوف بالبيت من غير عمرة شرعية فلا يُحرم إذا حاذى الميقات . ومعلوم أنّ من أراد نسكاً بمكة لم يكن له أن يجاوز الميقات إلاّ محرماً ، ولو قصدها لتجارة أو لزيارة قريب له أو طلب علم كان مأموراً أيضاً بالإحرام من الميقات ، وهل ذلك واجب أو مستحب ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء . وهذا

بـاب واسع ، ومنـه السحر والكهـانـة ، وقـد بسط الكـلام على هـذا في غيـر هـذا الموضع .

وعند المشركين عبّاد الأوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الأمة في ذلك من الحكايات ما يطول وصفه ، فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نبياً كان أو غير نبي إلاّ وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله ، كما أن الـذين يدعونهم في مغيبهم ويستغيثون بهم فيرون من يكون في صورتهم أو يـظنون أنـه في صورتهم ويقول: أنا فلان ويكلمهم ويقضي بعض حوائجهم، فإنهم يـظنون أن الميت المستغاث به هو الذي كلمهم وقضى مطلوبهم وإنما هو من الجن والشياطين . ومنهم من يقول هو ملك من المـلائكة ، والمـلائكة لا تعين المشـركين وإنما هـم شيـاطين أضلوهم عن سبيل الله .

وفي مواضع الشرك من الوقائع الحكايات التي يعرفها من هنالك ومن وقعت له ما يطول وصفه . وأهل الجاهلية فيها نوعان : نوع يكذّب بذلـك كله ، ونوع يعتقـد ذلك كرامـات لأولياء الله . فـالأول يقول: إنمـا هذا خيـال في أنفسهم لا حقيقة لـه في الخارج ، فإذا قالوا ذلك لجماعة بعد جماعة فمن رأى ذلك وعاينه موجـوداً أو تواتـر عنده ذلك عمن رآه موجوداً في الخارج وأخبره به من لا يرتاب في صدقه كان هذا من أعظم أسباب ثبات هؤلاء المشركين المبتدعين المشاهدين لذلك والعارفين به بالأخبار الصادقة . ثم هؤلاء المكذبون لذلك متى عاينوا بعض ذلـك خضعوا لـمن حصـل له ذلك وانقادوا له واعتقدوا أنه من أولياء الله ، مع كونهم يعلمون أنه لا يؤدّي فرائض الله حتى ولا الصلوات الخمس ، ولا يجتنب محـارم الله لا الفواحش ولا الـظلم ، بـل يكون من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى التي وصف الله بها أولياءه في قوله تعالى : ﴿ألا إنَّ أوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّـذِينَ آمَنُوا وكـانُوا يَتَّقُـونَ﴾[1] فيرون من هو مِن أبعد النـاس عن الإيمـان والتقوى لـه من المكاشفـات والتصرفـات الخارقات ما يعتقدون أنه من كرامات أولياء الله المتقين ، فمنهم من يرتدُّ عن الإسلام وينقلب على عقبيه ويعتقد فيمن لا يصلي بـل ولا يؤمن بالـرسل بـل يسب الـرسـل وينتقص بهم أنه من أعظم أوليـاء الله المتقين . ومنهم من يبقى حائـراً متردِّداً شـاكّاً

---

(١) سورة يونس ، الآيتان : (٦٢ و ٦٣) .

مرتاباً يقدم إلى الكفر رِجلاً وإلى الإسلام أخرى ، وربما كان إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمـان . وسبب ذلك أنهم استدلوا على الـولاية بمـا لا يدل عليهـا ، فإن الكفـار والمشركين والسحرة والكهان معهم من الشياطين من يفعل بهم أضعاف أضعاف ذلك قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطين ؟ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم ﴾[1] ، وهؤلاء لا بد أن يكون فيهم كـذب وفيهم مخالفـة للشرع ، ففيهم من الإثم والإفـك بحسب ما فارقوا أمر الله ونهيه الذي بعث به نبيه ﷺ . وتلك الأحوال الشيطانية نتيجة ضلالهم وشركهم وبدعتهم وجهلهم وكفرهم وهي دلالة وعلامة على ذلك ، والجاهل الضالّ يظن أنها نتيجة إيمانهم وولايتهم لله تعالى ، وأنها علامة ودلالة على إيمانهم وولايتهم لله سبحـانـه ، وذلـك أنـه لم يكن عنـده فـرق بين أوليـاء الـرحمن وأوليـاء الشيـطان كما قـد تكلمنا على ذلـك في مسألـة (الفرق بين أوليـاء الـرحمن وأولياء الشيطان) ، ولم يعلم أن هذه الأحوال التي جعلها دليلاً على الولاية تكون للكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم مما تكون للمنتسبين إلى الإسـلام ، والدليـل مستلزم للمدلول مختص به لا يوجد بدون مـدلولـه ، فإذا وجـدت للكفار والمشـركين وأهل الكتاب لم تكن مستلزمة للإيمان فضلاً عن الولاية ولا كانت مختصة بذلك ، فامتنع أن تكون دليلاً عليه .

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وكراماتهم ثمرة إيمـانهم وتقواهم لا ثمـرة الشرك والبدعة والفسق ، وأكابر الأولياء إنما يستعملون هذه الكرامات بحجة للدين أو لحاجة المسلمين ، والمقتصدون قد يستعملونها في المباحات ، وأما من استعان بها في المعاصي فهو ظالم لنفسه ، متعد حدَّ ربه ، وإن كان سببهـا الإيمان والتقـوى ، فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فأنفقها في طاعة الشيطان ، فهذا المال وإن ناله بـسبب عمـل صالـح فإذا أنفقـه في طاعـة الشيطان كـان وبالاً عليـه ، فكيف إذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهي تدعو إلى كفر آخر وفسوق وعصيان ، ولهذا كان أئمة هؤلاء معترفين بأن أكثرهم يموتون على غير الإسـلام . ولبسط هذه الأمـور موضع آخر .

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعونه عند

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : (٢٢١ و٢٢٢) .

الأوثان ، كإخبار عن غائب ، أو أمر يتضمّن قضاء حاجة ونحو ذلك ، فإذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهيّ عانقه أو كلمه ظنّ أن ذلك هو النبي المقبور ، والقبر لم ينشق وإنما الشيطان مثّل له ذلك ، كما يمثل لأحدهم أن الحائط انشق وأنه خرج منه صورة إنسان ويكون هو الشيطان تمثل له في صورة إنسان وأراه أنه خرج من الحائط .

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذي رآه قد خرج من القبر : نحن لا نبقى في قبورنا ، بل من حين يقبر أحدنا يخرج من قبره ويمشي بين الناس . ومنهم من يرى ذلك الميت في الجنازة يمشي ويأخذ بيده ، إلى أنواع أخرى معروفة عند من يعرفها ، وأهل الضلال إما أن يكذّبوا بها وإما أن يظنوها من كرامات أولياء الله ، ويظنون أن ذلك الشخص هو نفس النبي أو الرجل الصالح أو ملك على صورته ، وربما قالوا هذا روحانيته أو رقيقته أو سره أو مثاله أو روحه تجسدت ، حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين ، ولا يعلم أن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الإنسي ، وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدْعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم من المشركين الذين يدعون غير الله ، كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً .

قال تعالى : ﴿ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ والْحُكْمَ والنُّبوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عِباداً لي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بما كُنْتُم تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * ولا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تحويلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ويَخَافُونَ عَذابَهُ ، إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّماوات ولا في الأرض وما لَهُمْ فيهما مِن شِرْكٍ وما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : (٧٩ و ٨٠) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : (١٧) .

ظَهير ، ولا تَنْفعُ الشَّفاعَةُ عنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ له ﴾[1] . ومثل هذا كثير في القرآن ينهى أن يُدْعى غيرُ الله لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم ، فإن هذا شِرك أو ذريعة إلى الشرك . بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضي إلى ذلك ، فإن أحداً من الأنبياء والصالحين لم يُعبد في حياته بحضرته ، فإنه ينهى من يفعل ذلك بخلاف دعائهم بعد موتهم فإن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم ، وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة إلى الشرك . فمن رأى نبياً أو ملكاً من الملائكة وقال له : ادعُ لي لم يفض ذلك إلى الشرك به ، بخلاف من دعاه في مغيبه فإن ذلك يفضي إلى الشرك به كما قد وقع ، فإن الغائب والميت لا ينهى من يشرك ، بل إذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك إلى الشرك به فدُعي وقُصد مكانُ قبره أو تمثاله أو غير ذلك ، كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين . ومعلوم أن الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شيءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فاغْفِرْ للَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيم ، رَبَّنا وأدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَومئذ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ تَكادُ السَّمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ وَالملائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمنْ في الأَرضِ ألا إنَّ اللَّهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ، والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونه أَوْلِياءَ اللَّهُ حفيظٌ عَلَيْهِم وَما أَنْتَ عليهم بوَكِيلٍ ﴾[3] .

فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد . وكذلك ما روي أن النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين بدعو ويشفع للأخيار من أمته ، هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد .

---

(١) سورة سبأ ، الآيتان : (٢٢ و ٢٣) .
(٢) سورة غافر ، الآيات : (٧ ـ ٩) .
(٣) سورة الشوري ، الآيتان : (٥ و ٦) .

وإذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين ، ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة وإن كانوا يدعون ويشفعون ، لوجهين : أحدهما : أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وإن لم يطلب منهم ، وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم ، فلا فائدة في الطلب منهم . الثاني : أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يفضي إلى الشرك بهم ففيه هذه المفسدة ، فلو قُدِّر أن فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة ، فكيف ولا مصلحة فيه . بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم فإنه لا مفسدة فيه ، فإنهم ينهون عن الشرك بهم . بل فيه منفعة ، وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ، فإنهم في دار العمل والتكليف ، وشفاعتهم في الآخرة فيها إظهار كرامة الله لهم يوم القيامة .

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التي لا يجب عليهم فعلها ليس واجباً على السائل ولا مستحباً ، بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة إليه والتوكل عليه . وسؤال الخلق في الأصل محرم ، لكنه أبيح للضرورة ، وتركه توكلاً على الله أفضل ، قال تعالى : ﴿ فإذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فارْغَبْ ﴾[1] أي ارغب إلى الله تعالى لا إلى غيره . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وقالُوا حَسْبُنا اللَّهُ سَيُؤْتِينا اللَّهُ من فَضْلِه وَرَسُولُهُ إنا إلى اللَّهِ راغِبُونَ ﴾[2] فجعل الإيتاء لله والرسول لقوله تعالى : ﴿ وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا ﴾[3] فأمرهم بإرضاء الله ورسوله . وأما في الحَسْب فأمرهم أن يقولوا : ﴿ حَسْبنا الله ﴾ لا أن يقولوا : حسبنا الله ورسوله . [ويقولوا][4] : ﴿ إنا إلى الله راغبون ﴾[5] لم يأمرهم أن يقولوا : إنا لله ورسوله راغبون ، فالرغبة إلى الله وحده كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فأولئك هم الفائزون ﴾[6]

---

(١) سورة الشرح ، الآيتان : (٧ و ٨) .
(٢) سورة التوبة ، الآية : (٥٩) .
(٣) سورة الحشر ، الآية : (٧) .
(٤) وردت في الأصل : وقالوا .
(٥) سورة التوبة ، الآية : (٥٩) .
(٦) سورة النور ، الآية : (٢٥) .

فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده . وقد قال النبي ﷺ لابن عباس : « **ياغلام : إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جفَّ القلم بما أنت لاق ، فلو جهدت الخليقة على أن يضرُّوك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً** » وهذا الحديث معروف مشهور ، ولكن قد يروى مختصراً ، وقوله : « **إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله** » هو من أصح ما روي عنه . وفي المسند لأحمد أن أبا بكر الصدِّيق كان يَسقط السوط من يده فلا يقول لأحد : ناولني إياه ، ويقول : إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً . وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ بايع طائفة من أصحابه وأسرَّ إليهم كلمة خفية : أن لا تسألوا الناس شيئاً . قال عوف : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد : ناولني إياه . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « **يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب** » ، وقال : « **هم الذينَ لا يَسْتَرْقُونَ ولا يكتوون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكلون** » فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون ، أي لا يطلبون من أحد أن يرقيهم . والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك . وقد روي فيه « ولا يرقون » وهو غلط ، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة . وكان النبي ﷺ يرقي نفسه وغيره ولم يكن يسترقي ، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا مأمور به ، فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك في قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم . وما يروى أن الخليل لما ألقي في المنجنيق[1] قال له جبريل : سل ، قال : « حسبي من سؤالي علمه بحالي » ليس له إسناد معروف وهو باطل ، بل الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » قال ابن عباس : قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد حين قال لهم الناس : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم** ﴾[2] ، وقد روي أن جبريل قال : هل لك من حاجة ؟ قال : « أما إليك فلا » وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره . وأما سؤال الخليل

---

(١) المنجنيق : آلة قديمة من آلات الحصار ، كانت ترمي بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٧٣) .

لربه عز وجل فهذا مذكور في القرآن في غير موضع ، فكيف يقول حسبي من سؤالي علمه بحالي ، والله بكل شيء عليم ، وقد أمر العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه ، لأنه سبحانه جعل هذه الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين ، وإجابة السائلين . وهو سبحانه يعلم الأشياء على ما هي عليه ، فعلمه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لا ينافي أن يأمر هذا بالتوبة والاستغفار ، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التي تقضى بها حاجته ، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التي بها ينال كرامته .
ولكن العبد قد يكون مأموراً في بعض الأوقات بما هو أفضل من الدعاء كما روي في الحديث : « من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال : « **من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين** » قال الترمذي : حديث حسن غريب[1] .

وأفضل العبادات البدنية الصلاة ، وفيها القراءة والذكر والدعاء ، وكل واحد في موطنه مأمور به ، ففي القيام بعد الاستفتاح يقرأ القرآن ، وفي الركوع والسجود ينهى عن قراءة القرآن ويؤمر بالدعاء ، كما كان النبي ﷺ يدعو في آخر الصلاة ويأمر بذلك ، والدعاء في السجود حسن مأمور به ويجوز الدعاء في القيام أيضاً وفي الركوع ، وإن كان جنس القراءة والذكر أفضل فالمقصود أن سؤال العبد لربه السؤال المشروع حسن مأمور ، وقد سأل الخليل وغيره ، قال تعالى عنه : ﴿ **رَبَّنا إنِّي أسْكَنْتُ منْ ذُرِّيَّتِي بوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ ، رَبَّنا لِيُقيمُوا الصَّلاةَ فاجْعَلْ أفْئِدَةً منَ النَّاس تَهْوِي إِلَيْهِم وارْزُقْهُمْ منَ الثَّمراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ، رَبَّنا إنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخفي وما نُعْلِنُ ، وما يَخفَى عَلَى الله من شَيءٍ في الأرضِ ولا في السَّماء ، الحَمْدُ لله الذي وَهَبَ لي عَلَى الكِبَرِ إسمٰعيلَ وإسْحٰقَ إنَّ رَبِّي لَسَميعُ الدُّعاء ، رَبِّ اجعَلْني مُقيمَ الصَّلاة ومِنْ ذُرِّيَّتي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ ، رَبَّنا اغْفر لي وَلوالدَيَّ وللمؤمنينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَواعدَ منَ البَيْتِ وَإسْمٰعيلُ : رَبَّنا تَقَبَّلْ منَّا إنَّكَ أنْتَ السَّميعُ العَليمُ ، رَبَّنا واجْعَلْنا مُسْلمينَ لَكَ ومنْ ذُرِّيَّتنا أُمَّةً مُسْلمَةً**

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن باب ٢٤ (٥/١٦٩) برقم ٢٩٢٦ .
(٢) سورة إبراهيم ، الآيات : (٣٧ - ٤١) .

لَكَ وَأرنا مَناسكنا وَتُب عَلينا إنَّك أنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنا وابْعَثْ فيهم رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِم آيـاتـكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتـابَ وَالحكمَـةَ وَيُـزَكيهِم إنَّـكَ أنْتَ العَـزِيـزُ الحَكيم ﴾[1] .

وكذلك دعاء المسلم لأخيه حسنٌ مأمور به ، وقد ثبت في الصحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال : « **ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا وكل الله به ملكاً كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل : آمين ولك بمثله** » أي بمثل ما دعوت لأخيك به .

وأما سؤال المخلوق أن يقضي حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به ، بخلاف سؤال العلم فإن الله أمر بسؤال العلم كما في قوله تعالى : ﴿ **فاسْألُوا أهْلَ الـذِّكْر إن كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **فإنْ كُنْتَ في شَك ممَّا أنزَلنا إليكَ فاسأل الَّذينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾[3] وقال تعـالى : ﴿ **وَاسْـألْ مَنْ أرْسَلْنـا مِنْ قَبْلِكَ مِن رُسُلنا . أجَعَلْنا من دُون الرَّحمنِ آلِهَةً يُعْبَدُون** ﴾[4] وهذا لأن العلم يجب بذله ، فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وهو يزكو على التعليم ، لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل . ولهذا يشبه بالمصباح . وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة ، لصاحبها أن يسألها ممن هي عنده ، وكذلك مال الفيء وغيره من الأموال المشتركة التي يتولى قسمتها ولي الأمر ، للرجل أن يطلب منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية ، لأن المستولي يجب عليه أداء الحق إلى مستحقه . ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه ، وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر أهل القرية . وكذلك الغريم له أن يطلب دَينه ممن هو عليه . وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه إليه : فالبائع يسأل الثمن ،

---

(١) سورة البقرة ، الآيات : (١٢٧ - ١٢٩) .

(٢) سورة النحل ، الآية : (٤٣) وسورة الأنبياء ، الآية : (٧) .

(٣) سورة يونس ، الآية : (٩٤) .

(٤) سورة الزخرف ، الآية : (٤٥) .

والمشتري يسأل المبيع . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَساءَلُونَ به والأرْحام ﴾[1] .

ومن السؤال ما لا يكون مأموراً به ، والمسؤول مأمور بإجابة السائل . قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذينَ في أمْوالِهم حَقٌّ . مَعْلُومٌ للسَّائِل والمَحْروم ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ فكُلُوا منْهَا وأطْعمُوا القانِعَ والمُعْتَرَّ ﴾[4] ومنه الحديث : « إن أحدكم ليسألني المسألة فيخرج بها يتأبطها ناراً » وقوله : « اقطعوا عني لسان هذا » .

وقد يكون السؤال منهياً عنه نهي تحريم أو تنزيه ، وإن كان المسؤول مأموراً بإجابة سؤاله . فالنبي ﷺ كان من كماله أن يعطي السائل ، وهذا في حقه من فضائله ومناقبه ، وهو واجب أو مستحب ، وإن كان نفس سؤال السائل منهياً عنه . ولهذا لم يعرف قط أن الصدِّيق ونحوه من أكابر الصحابة سألوه شيئاً من ذلك ، ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين ، كما أشار عليه عمر في بعض مغازيه لما استأذنوه في نحر بعض ظهرهم[5] فقال عمر : يا رسول الله كيف بنا إذا لقينا العدو غداً رجالاً جياعاً[6] ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ثم تدعو الله بالبركة فإن الله يبارك لنا في دعوتك . وفي رواية : فإن الله سيغيثنا بدعائك . وإنما كان سأله ذلك بعض المسلمين كما سأله الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره ، وكما سألته أم سُلَيم أن يدعوا الله لخادمه أنس ، وكما سأله أبو هريرة أن يدعو الله أن يحببه وأمه إلى عباده المؤمنين ، ونحو ذلك .

وأما الصدِّيق فقد قال الله فيه وفي مثله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُها الأتقى الَّذي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى وما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى وَلَسَوْفَ

---

(١) سورة النساء ، الآية : (١) .

(٢) سورة الضحى ، الآية : (١٠) .

(٣) سورة المعارج ، الآيتان : (٢٤ و ٢٥) .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية : (٣٦) .

(٥) أي نحر بعض ما يركبون .

(٦) أي ليس لهم ما يركبون عليه .

يَرضَى ﴾[1] وقد ثبت في الصحاح عنه أنه ﷺ قال : « **إنَّ أمنَّ الناس علينا في صحبته وذات يده أبو بكر ، ولو كنتُ متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً** » فلم يكن في الصحابة أعظم منَّة من الصدِّيق في نفسه وماله .

وكان أبو بكر إنما يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاء من مخلوق ، فقال تعالى : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُها الأتقى الَّذي يُؤتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأحد عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجزَى . إلاَّ ابْتِغاءَ وَجه رَبِّه الأعلى ، وَلَسَوفَ يَرضَى** ﴾[2] فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى ، فإنه كان مستغنياً بكسبه وماله عن كل أحد ، والنبي ﷺ كان له على الصديق وغيره نعمة الإيمان والعلم ، وتلك النعمة لا تجزى ، فإن أجر الرسول فيها على الله كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيه مِن أجرٍ إنْ أجريَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالمِين** ﴾[3] وأما عليٌ وزيد[4] وغيرهما فإن النبي ﷺ كان له عندهم نعمة تجزى ، فإن زيداً كان مولاه فأعتقه . قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ للَّذي أنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأنْعَمْتَ عَلَيْهِ أمْسِك عَلَيْكَ زَوْجك** ﴾[5] وعليٌّ كان في عيال النبي ﷺ لجدب أصاب أهل مكة فأراد النبي ﷺ والعباس التخفيف عن أبي طالب من عياله ، فأخذ النبي ﷺ علياً إلى عياله وأخذ العباس جعفراً إلى عياله ، وهذا مبسوط في موضع آخر . والمقصود هنا أن الصدِّيق كان أمنَّ الناس في صحبته وذات يده لأفضل الخلق رسول الله ﷺ ، لكونه كان ينفق ماله في سبيل الله كاشترائه المعذبين . ولم يكن النبي ﷺ محتاجاً في خاصة نفسه لا إلى أبي بكر ولا غيره ، بل لما قال له في سفر الهجرة : إن عندي راحلتين فخذ إحداهما ، قال النبي ﷺ : « **بالثمن** » . فهو أفضل صدِّيق لأفضل نبي ، وكان من كماله أنه لا يعمل ما يعمله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاء من أحد من الخلق ، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم .

ومن الجزاء أن يطلب الدعاء ، قال تعالى عمن أثنى عليهم : ﴿ **إنَّما نُطعِمُكُمْ**

---

(١) سورة الليل ، الآيات : (١٧ ـ ٢١) .

(٢) سورة الليل ، الآيات : (١٧ ـ ٢١) .

(٣) سورة الشعراء ، الآية : (١٢٧) .

(٤) أي علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة ربيب رسول الله ﷺ .

(٥) سورة الأحزاب ، الآية : (٣٧) .

﴿لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورا﴾[1] والدعاء جزاء كما في الحديث « من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه » وكانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بصدقة تقول للرسول : اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا ويبقى أجرنا على الله . وقال بعض السلف : إذا قال لك السائل : بارك الله فيك ، فقل : وفيك بارك الله ، فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبياً أو رجلاً صالحاً أو ملكاً من الملوك أو غنياً من الأغنياء فهذا العامل للخير مأمور بأن يفعل ذلك خالصاً لله يبتغي به وجه الله ، لا يطلب به من المخلوق جزاء ولا دعاء ولا غيره ، لا من نبي ولا رجل صالح ولا من الملائكة ، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين .

وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل فلا يقبل من أحد ديناً غيره ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخرة مِنَ الخاسِرين ﴾[2] وكان نوح وإبراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الأنبياء عليهم السلام على الإسلام ، قال نوح : ﴿ وأُمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلمين ﴾[3] وقال عن إبراهيم : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهيمَ إلاَّ مِنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَد اصْطَفَيْناهُ في الدُّنْيا وإنَّهُ في الآخرة لِمَنَ الصَّالِحِينَ ، إذْ قال رَبُّهُ أَسْلم قال : أَسْلَمْتُ لربِّ العالمين ، وَوَصَّى بِها إبراهيمُ بَنيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إنَّ الله اصْطَفى لَكم الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾[4] ، وقال موسى : ﴿ يا قَوْمِ إنْ كُنْتُم آمَنْتُم بالله فَعَلَيهِ تَوكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُسْلِمين ﴾[5] وقالت السحرة : ﴿ رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلمين ﴾[6] وقال يوسف : ﴿ تَوَفَّني مُسْلماً وألحقني بالصَّالحين ﴾[7] ، وقال

---

(١) سورة الإنسان ، الآية : (٩) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (٨٥) .
(٣) سورة يونس ، الآية : (٧٢) .
(٤) سورة البقرة ، الآيتا : (١٣٠ - ١٣٢) .
(٥) سورة يونس ، الآية : (٨٤) .
(٦) سورة الأعراف ، الآية : (١٢٦) .
(٧) سورة يونس ، الآية : (١٢٦) .

تعالى : ﴿ إِنَّا أنزَلنا التَّوراة فِيها هُدىً ونُورٌ يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الَّـذِينَ أَسْلَمُوا للَّـذِينَ هادُوا ﴾(١) وقال عن الحواريين : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إلى الحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولي قالوا آمَنَّا واشْهَدْ بِأنَّنا مُسْلِمُون ﴾(٢) .

ودين الإسلام مبني على أصلين : أن نعبد الله وحده لا شريك له ، وأن نعبده بما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو أمر استحباب ، فيُعبد في كل زمان بما أمر به في ذلك الزمان . فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين ، وكذلك شريعة الإنجيل .

وكذلك في أول الإسلام لما كان النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس كانت صلاته إليه من الإسلام ، ولما أُمر بالتوجه إلى الكعبة كانت الصلاة إليها من الإسلام ، والعدول عنها إلى الصخرة خروجاً عن دين الإسلام . فكلُّ من لم يعبد الله بعد مبعث محمد ﷺ بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم . ولا بد في جميع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين كما قال تعالى : ﴿ وما تَفَرَّقَ الَّذِين أُوتُوا الكِتَابَ إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ ، وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَة ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ الحَكِيم ، إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلاَ لله الدِّينُ الخَالِصُ ﴾(٤) فكل ما يفعله المسلم من القُرَب الواجبة والمستحبة ، كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال ، هو مأمورٌ بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين ، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء : لا دعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء ، لا دعاء ولا غيره .

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب إلا في بعض المواضع ، ويكون المسؤول مأموراً بالإعطاء قبل السؤال ، وإذا كان المؤمنون ليسوا

---

(١) سورة المائدة ، الآية : (٤٤) .
(٢) سورة المائدة ، الآية : (١١١) .
(٣) سورة البينة ، الآيتان : (٤ و ٥) .
(٤) سورة الزمر ، الآيات : (١ ـ ٣) .

مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك ﷺ ، فإنه أجل قدراً وأغنى بالله عن غيره . فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد : مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي من نوع الشرك ، ومفسدة إيذاء المسؤول وهي من نـوع ظلم الخلق ، وفيه ذل لغيـر الله وهو ظلم للنفس . فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة ، وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله . وحيث أمر الأمة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما ينتفعـون بـه ، كما يأمرهم بسائر الواجبات والمستحبات ، وإن كان هو ينتفع بـدعائهم لـه فهو أيضـاً ينتفع بمـا يأمرهم به من العبادت والأعمال الصالحة ، فإنه ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجـر مثل أجـور من اتبعه من غيـر أن ينقص من أجورهم شيء » ، ومحمد ﷺ هـو الداعي إلى ما تفعله أمته من الخيرات ، فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجـورهم من غير أن ينقص من أجـورهم شيء . ولهذا لم تجـر عادة السلف بأن يهدوا إليه ثواب الأعمال ، لأن له مثل ثواب أعمالهم بدون الاهـداء من غير أن ينقص من ثوابهم شيء . وليس كذلك الأبوان ، فإنه ليس كل ما يفعله الولد للوالد مثلُ أجره ، وإنما ينتفع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه إلى الأب ، كما قال في الحديث الصحيح : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له »[1] . فالنبي ﷺ ـ فيما يطلبه من أمته من الدعاء ـ طلبُه طلبُ أمر وترغيب ليس بطلب سؤال . فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسـلام عليه ، فهـذا أمـر الله بـه في القـرآن بقـولـه : ﴿ **صلوا عليـه وسلمـوا تسليما** ﴾[2] .

والأحاديث عنه في الصلاة والسلام معـروفة ، ومن ذلـك أمره بـطلب الوسيلة والفضيلة والمقـام المحمود كمـا ثبت في صحيـح مسلم عن عبـد الله بن عمـرو عن النبي ﷺ أنه قال : « **إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ ، فإنه من**

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأحكام باب في الوقف (٣/٦٦٠) برقم ١٣٧٦ بلفظ مقارب ، قال الخطابي في معالم السنن : فيه دليل على أن الصوم والصلاة وما دخل في معناهما من عمـل الأبدان لا تجري فيه النيابة ، وقد يستدل به من يذهب إلى أن من حج عن ميت فإن الحج في الحقيقة يكون للحاج دون المحجوج عنه ، وإنما يلحقه الدعاء ويكون له الأجر في المال الذي أعطى إن كان حج عنه بمال .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : (٥٦) .

صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة » ، وفي صحيح البخاري عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : « من قال حين سمع النداء[1] : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وأبعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد حلت له شفاعتي يوم القيامة » فقد رغَّب المسلمين في أن يسألوا الله له الوسيلة ، وبيَّن أن من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا ، فإن الجزاء من جنس العمل .

ومن هذا الباب الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه ، وابن ماجة أن عمر بن الخطاب استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له ثم قال : « لا تنسنا يا أخي من دعائك » فطلب النبي ﷺ من عمر أن يدعو له كطلبه أن يصلي عليه ويسلم عليه وأن يسأل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة ، وهو كطلبه أن يعمل سائر الصالحات ، فمقصوده نفع المطلوب منه والإحسان إليه . وهو ﷺ أيضاً ينتفع بتعليمهم الخير وأمرهم له ، وينتفع أيضاً بالخير الذي يفعلونه من الأعمال الصالحة ومن دعائهم له . ومن هذا الباب قول القائل : إني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « ما شئت » قال : « الربع » ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : النصف ؟ قال : « ما شئت وإن زدت فهو خير لك » قال : الثلثين ؟ قال : «ما شئت، وإذا زدت فهو خير لك » قال : اجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : «إذاً تُكفى همك ويُغفر لك ذنبك » رواه أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما ، وقد بسط الكلام عليه في (جواب المسائل البغدادية) . فإن هذا كان له دعاء يدعو به ، فإذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي ﷺ كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ، فإنه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا ، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة « آمين ، ولك بمثلٍ » للنبي ﷺ أولى بذلك .

ومن قال لغيره من الناس : ادع لي ـ أو لنا ـ وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضاً بأمره ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير فهو

---

(١) أي الأذان .

مقتد بالنبي ﷺ مؤتم به ، ليس هذا من السؤال المرجوح . وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والإحسان إليه ، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤتين به في ذلك ، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذي تَركه إلى الرغبة إلى الله ورسوله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله . وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائز المشروع .

وأما سؤال الميت فليس بمشروع ، ولا واجب ولا مستحب بل ولا مباح ، ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة ، لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة ، والشريعة إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة ، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة بل إمّا أن يكون مفسدة محضة أو مفسدة راجحة ، وكلاهما غير مشروع .

فقد تبين أن ما فعله النبي ﷺ من طلب الدعاء من غيره هو من باب الإحسان إلى الناس الذي هو واجب أو مستحب ، وكذلك ما أمر به من الصلاة على الجنائز ومن زيارة قبور المؤمنين والسلام عليهم والدعاء لهم هو من باب الإحسان إلى الموتى الذي هو واجب أو مستحب ، فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة ، فالصلاة حقُّ الحقِّ في الدنيا والآخرة ، والزكاة حقُّ الخلق . فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده ، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئاً . ومن عبادته الإحسان إلى الناس حيث أمرهم الله سبحانه به كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين ، فاستحوذ الشيطان على أتباعه فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق ، فإنهم إذا كانوا إنما يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو أنهم لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم ، كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين ، وكانوا مؤذين ظالمين لمن يسألونه ، وكانوا ظالمين لأنفسهم . فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة .

فالذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد ، وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد في المعاش والمعاد . فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى : ﴿ واعبُدوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبالوالدَيْنِ إحْساناً وبِذِي

القُرْبَى ﴾[1] وهذا أمر بمعالي الأخلاق ، وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها ، وقد روي عنه ﷺ أنه قال : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » رواه الحاكم في صحيحه ، وقد ثبت عنه في الصحيح ﷺ أنه قال : « **اليد العليا خير من اليد السفلى** » ، وقال : « **اليد العليا هي المعطية واليد السفلى هي السائلة** » وهذا ثابت عنه في الصحيح . فأين الإحسان إلى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم ؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراك به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله ؟ وأين صلاح العبد في عبوديّة الله والذل له والافتقار إليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه ؟ .

فالرسول ﷺ أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التي تصلح أمور أصحابها في الدنيا والآخرة ، ونهى عن الأنواع الثلاثة التي تفسد أمور أصحابها ، ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدوا الشَّيْطانَ أَنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدوني هَذا صِراطٌ مُسْتَقيم * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثيراً أَفَلَمْ تَكونُوا تَعْقِلُون** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِين** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **فإذا قَرَأْتَ القُرآنَ فاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيم * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتوكَّلُون * إِنَّما سُلطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَه والَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُون** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرحمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قرين * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مهتدون** ﴾[5] وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزل الله على رسوله الذي قال فيه : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلنا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لحافِظُون** ﴾[6]

---

(1) سورة النساء ، الآية : (٣٦) .
(2) سورة يس ، الآيات : (٦٠ ـ ٦٢) .
(3) سورة الحجر ، الآية : (٤٢) .
(4) سورة النحل ، الآيتان : (٩٨ و ٩٩) .
(5) سورة الزخرف ، الآيتان : (٣٦ و ٣٧) .
(6) سورة الحجر ، الآية : (٩) .

وقال تعالى : ﴿ فإمَّا يَأتِيَنَّكُمْ مني هُدًى فمَن اتَّبَعَ هُداي فلا يَضلُّ ولا يَشْقى * وَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْري فإنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامَة أعْمى * قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصيرا * قال كَذلِكَ أتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَها وَكَذلِكَ اليَوْمَ تُنسَى ﴾[1] وقد قال تعالى : ﴿ المص . كتابٌ أُنزِلَ إليكَ فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْه لِتُنذِرَ بِهِ وذِكْرَى للمُؤمنينَ * اتَّبِعُوا ما أُنزلَ إلَيكُم مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونه أولياءَ قَليلاً ما تَذَكَّرُون ﴾[2] وقد قال تعالى : ﴿ كتابٌ أنزَلناهُ إليكَ لِتُخرِجَ النَّاسَ من الظُّلماتِ إلى النُّور بإذنِ رَبِّهِم إلى صِراطِ العَزيزِ الحميد * الله الَّذي لَهُ ما في السَّمواتِ وما في الأرض وَوَيْلٌ للكافرينَ مِنْ عَذابٍ شديد ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وكَذلِكَ أوْحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا ما كنتَ تَدْرِي ما الكتاب ولا الإيمانُ ، ولكنْ جَعَلْناهُ نوراً نَهدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ من عبادِنا وَإنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراطٍ مُستَقيم * صِراطِ اللَّهِ الَّذي لَهُ ما في السَّموات وما في الأرض ألا إلى اللَّهِ تَصيرُ الأمور ﴾[4] .

فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمداً ﷺ بفعل ما أمر ، وترك ما حظر ، وتصديقه فيما أخبر ، لا طريق إلى الله إلا ذلك . وهذا سبيل أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين ، وكل ما خالف ذلك فهو من طرق أهل الغي والضلال ، وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا فقال تعالى : ﴿وَالنَّجْم إذَا هَوَى * ما ضَلَّ صاحبُكم وما غَوَى * وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحي ﴾[5] وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول في صلاتنا : ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ * صِراطَ الَّذين أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالِّين ﴾[6] وقد روى الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال : « اليَهودُ مَغْضوبٌ عَلَيْهِمْ ، وَالنَّصارى ضالُّونَ » قال الترمذي حديث صحيح[7] . وقال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون من

(١) سورة طه ، الآيات : (١٢٣ ـ ١٢٦) .
(٢) سورة الأعراف ، الآيات : (١ ـ ٣) .
(٣) سورة إبراهيم ، الآيتان : (١ و ٢) .
(٤) سورة الشورى ، الآيات : (٥٢ ـ ٥٥) .
(٥) سورة النجم ، الآيات : (١ ـ ٤) .
(٦) سورة الفاتحة ، الآيتان : (٦ و ٧) .
(٧) انظر سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن العظيم باب ومن سورة الفاتحة (٥/١٨٧) برقم ٢٩٥٤ .

فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى . وكان غير واحد من السلف يقول : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون . فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ أتأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وتنْسَونَ أنفُسكُمْ وَأنْتُمْ تَتلُونَ الكتابَ أفَلا تعقلُونَ ﴾[1] ومن عبد الله بغير علم بل بالغلوّ والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دِينِكُمْ غيرَ الحقِّ ولا تَتبِعُوا أهواءَ قَومٍ قَدْ ضَلُّوا من قَبلُ وأضَلوا كَثيراً وَضَلُّوا عَن سَواءِ السَّبيلِ ﴾[2] فالأول من الغاوين ، والثاني من الضالين : فإن الغي اتباع الهوى ، والضلال عدم الهدى . قال تعالى : ﴿ واتْلُ عَليهم نَبَأَ الَّذي آتَيناهُ آياتِنا فانسَلَخَ منها فاتبَعَهُ الشيطانُ فَكَانَ مِنَ الغاوين * وَلَو شِئنا لَرَفَعْنَاهُ بها ولكنَهُ أخلَدَ إلى الأرضِ وَاتَبَعَ هَواهُ فمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إن تَحمِلْ عَلَيه يَلهَثْ أو تَترُكه يَلهَث ، ذَلِكَ مَثَل القَوم الذين كَذبُوا بِآياتنا فاقصُصِ القَصَص لَعَلَهُم يَتَفَكرُون ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ سَأصْرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبرُونَ في الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ وإن يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنوا بها وَإن يَرَوا سَبيلَ الرُّشد لا يتّخِذُوهُ سَبيلاً وَإن يَرَوا سَبيلَ الغَيِّ يَتّخِذُوهُ سَبيلاً ، ذَلك بأنَّهُم كذبُوا بآياتنا وكانُوا عنها غافلين ﴾[4] ومن جمع الضلال والغي ففيه شبه من هؤلاء وهؤلاء . نسأل الله تعالى أن يهدينا وسائر إخواننا صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

---

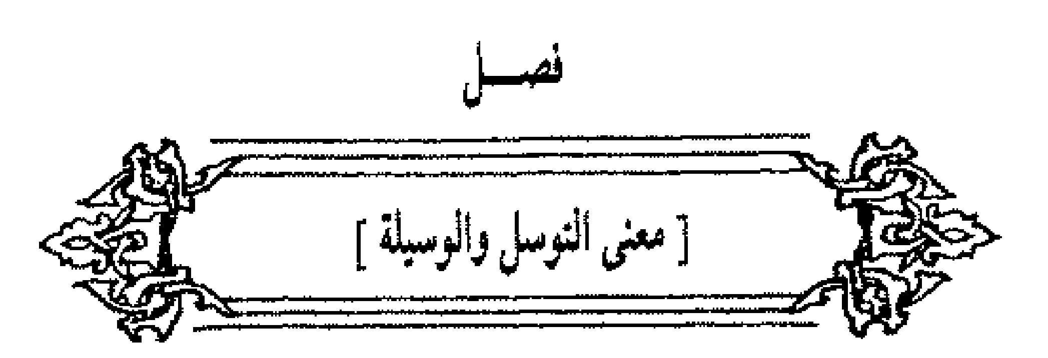
(١) سورة البقرة ، الآية : (٤٤) .

(٢) سورة المائدة ، الآية : (٧٧) .

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان : (١٧٥ و ١٧٦) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : (١٤٦) .

فصـــل



إذا عرف هذا فقد تبين أن لفظ « الوسيلة » و « التوسل » فيه إجمال واشتباه يجب أن تعرف معانيه ، ويعطى كل ذي حق حقه ، فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه ، وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك ، ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه فإن كثيراً من اضطرار الناس في هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك في الألفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب .

فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغُوا إليه الوَسيلة ﴾[1] وفي قوله تعالى : ﴿ قُل ادعُوا الذين زعمتُم من دُونه فلا يملكون كشف الضُرِّ عنكم ولا تحويلا . أُولئك الذين يُدعون يبتغُون إلى ربِّهم الوسيلة أيُّهم أقربُ ويرجُون رحمتهُ ويخافُون عذابهُ إن عذاب ربِّك كان محذُوراً ﴾[2] . فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه ، وهي ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات ، فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب ، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك ، سواء كان محرَّماً أو مكروهاً أو مباحاً . فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمْرَ إيجاب أو استحباب ، وأصلُ ذلك الإيمان بما جاء به

---

(١) سورة المائدة ، الآية : (٣٥) .

(٢) سورة الإسراء ، الآيتان : (٥٦ و ٥٧) .

الرسول . فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد إلى الله إلاّ ذلك .

والثاني : لفظ الوسيلة في الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ : « سَلوا الله لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد . فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة »[1] وقوله : قال حين يسمع النداء : اللهمّ رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد ، حلت له الشفاعة » فهذه الوسيلة للنبي ﷺ خاصة . وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة ، وأخبر أنها لا تكون إلاّ لعبد من عباد الله وهو يرجو أن يكون ذلك العبد ، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول وأخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة لأن الجزاء من جنس العمل ، فلما دعوا للنبي ﷺ استحقوا أن يدعو هو لهم ، فإن الشفاعة نوع من الدعاء كما قال : إنه من صلّى عليه مرة صلّى الله عليه بها عشراً .

وأمّا التوسل بالنبي ﷺ والتوجه به في كلام الصحابة : فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الإقسام به والسؤال به ، كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقد فيه الصلاح .

وحينئذٍ فلفظ التوسل به معنيان صحيحان بإتفاق المسلمين ، ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة . فأما المعنيان الأولان ـ الصحيحان باتفاق العلماء ـ فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته ، والثاني دعاؤه وشفاعته كما تقدم . فهذان جائزان بإجماع المسلمين ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : اللهمَّ إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . أي بدعائه وشفاعته ، وقوله تعالى : ﴿ وابتَغُوا إلَيْه الوسيلة ﴾[2] أي القربة إليه بطاعته . وطاعةُ

---

(١) أخرج الترمذي في كتاب المناقب باب في فضل النبي ﷺ (٥٤٦/٥) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سلوا الله لي الوسيلة » قالوا : يا رسول الله ، وما الوسيلة ؟ قال : « أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلاّ رجل واحد أرجو أن أكون أنا هو » .

(٢) سورة المائدة ، الآية : (٣٥) .

رسول طاعته ، قال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾[1] فهذا التوسل الأول هو أصل الدين ، وهذا لا ينكره أحد من المسلمين . وأما التوسل بدعائه وشفاعته ـ كما قال عمر ـ فإنه توسل بدعائه لا بذاته ، ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسُّل بعمه العباس ، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس ، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته ، بخلاف التوسل الذي هو الإيمان به والطاعة له فإنه مشروع دائماً .

فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان : أحدها : التوسل بطاعته ، فهذا فرض لا يتم الإيمان إلاَّ به . والثاني : التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا كان في حياته ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته . والثالث : التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لا في حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة ، أو عن من ليس قوله حجة ، كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى . وهذا هو الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه : أنه لا يجوز ونهوا عنه حيث قالوا : لا يُسأل بمخلوق ، ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة : وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة . قال بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف قال : قال أبو حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلاَّ به . وأكره أن يقول : « بمعاقد العز من عرشك » أو « بحق خلقك » . وهو قول أبي يوسف . قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام . قال القدوري : المسألة بخلقه لا تجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقاً . وهذا الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لا يسأل بمخلوق . له معنيان :

أحدهما : هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق ، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق ، فلأنْ يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق

---

(١) سورة النساء ، الآية : (٨٠) .

أولى وأحرى ، وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والشمس وضحاها ، والنازعات غرقا ، والصافات صفاً ، فإن إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه ، بخلاف المخلوق فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « **من حلف بغير الله فقد أشرك** » وقد صححه الترمذي وغيره[1] ، وفي لفظ « **فقد كفر** » وقد صححه الحاكم . وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « **من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت** » وقال : « **لا تحلفوا بآبائكم فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم** » وفي الصحيحين عنه أنه قال : « **من حلف باللات والعُزّى فليقل : لا إله إلاّ الله** » وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة أو بما يعتقد هو حرمته كالعرش والكرسي والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي ﷺ والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين وإيمان السذق[2] وسراويل الفتوة وغير ذلك لا ينعقد يمينه ولا كفارة في الحلف بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب أبي حنيفة ، وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد . وقد حكي إجماع الصحابة على ذلك . وقيل : هي مكروهة كراهة تنزيه ، والأول أصح حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغير الله صادقاً . وذلك لأن الحلف بغير الله شرك ، والشرك أعظم من الكذب ، وإنما يعرف النزاع في الحلف بالأنبياء ، فعن أحمد في الحلف بالنبي ﷺ روايتان : إحداهما : لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور : مالك وأبي حنيفة والشافعي ، والثانية : ينعقد اليمين به واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه ، وابن المنذر وافق هؤلاء . وقصر أكثر هؤلاء النزاع في ذلك على النبي ﷺ خاصة ، وعدَّى ابن عقيل هذا الحكم إلى سائر الأنبياء . وإيجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وإن كان نبياً قول ضعيف في

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب النذور والإيمان باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (٤/٩٤) برقم ١٥٣٥ .

(٢) لعل المقصود بها ليلة الوقود التي يعظمها المجوس .

الغاية مخالف للأصول والنصوص فالإقسام به على الله ـ والسؤال به بمعنى الإقسام ـ هو من هذا الجنس .

وأما السؤال بالمخلوق إذا كانت فيه باء السبب ليست باء القسم ـ وبينهما فرق ـ فإن النبي ﷺ أمر بإبرار القسم ، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « **إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره** » قال ذلك لما قال أنس بن النضر : أتكسرُ ثنية الربيع ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر سنها . فقال : « **يا أنس كتابُ الله القصاص** » ، فرضي القوم وعفوا ، فقال ﷺ : « **إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره** » وقال : « **ربَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره** » رواه مسلم وغيره ، وقال : « **ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار كل عُتُلّ جوّاظ مستكبر** »[1] وهذا في الصحيحين ، وكذلك حديث أنس بن النضر والآخر من أفراد مسلم ، وقد روي في قوله : « **إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره** » أنه قال : « منهم البراء بن مالك » وكان البراء إذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون : يا براء ، أقسم على ربك . فيقسم على الله فينهزم الكفار . فلمّا كانوا على قنطرة بالسوس قالوا : يا براء أقسم على ربك . فقال : يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد . فأبر الله قسمه فانهزم العدو واستشهد البراء بن مالك يومئذ . وهذا هو أخو أنس بن مالك ، قتل مائة رجل مبارزة غير من شرك في دمه ، وحمل يوم مسيلمة على ترس ورمى به إلى الحديقة حتى فتح الباب .

والإقسام به على الغير أن يحلف المقسم على غيره ليفعلن كذا فإن حنثه ولم يبر قسمه فالكفارة على الحالف لا على المحلوف عليه عند عامة الفقهاء ، كما لو حلف على عبده أو ولده أو صديقه ليفعلن شيئاً ولم يفعله فالكفارة على الحالف الحانث . وأما قوله : « سألتك بالله أن تفعل كذا » فهذا سؤال وليس بقسم ، وفي الحديث « من سألكم بالله فأعطوه » ولا كفارة على هذا إذا لم يجب سؤاله . والخلق

---

(١) الرجل العتل : هو الشديد القوي المصحح الجسم ، واشتقاقه من العتلة التي يحفر بها ، والجواظ : هو الكثير اللحم الذي يختال في مشيته ، ويقال : الجواظ : الأكول ، ويقال : الفاجر .

كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم ، وقد يجيب الله دعاء الكفار ، فإن الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم ، وإذا مسهم الضر في البحر ضل من يدعون إلَّا إياه ، فلما نجاهم إلى البر أعرضوا وكان الإنسان كفوراً[1] .

وأما الذين يقسمون على الله فيبر قسمهم فإنهم ناس مخصوصون .

فالسؤال كقول السائل لله : أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام . وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك . فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وليس ذلك إقساماً عليه ، فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته ، فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم ، وعفوه من مقتضى اسمه العفوِّ . ولهذا لما قالت عائشة للنبي ﷺ : إن وافقتُ ليلة القدر ماذا أقول ؟ قال : « قولي : **اللهمَّ إنك عفوٌّ تحب العفو فاعفُ عني** » . وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادي ، وفي الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلاً أن يقول : يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين ، واجعلني من عبادك الصالحين .

وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ، ولهذا يقال في الدعاء : يا رب يا رب ، كما قال آدم : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ** ﴾[2] وقال نوح : ﴿ **رَبِّ إِنِي أَعوذُ بِكَ أَنْ أَسأَلَكَ ما لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وإلَّا تَغْفِرْ لي وتَرْحَمْني أَكُنْ لَكَ مِنَ الخاسِرِينَ** ﴾[3] وقال إبراهيم : ﴿ **رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ . . .** ﴾[4] وكذلك سائر الأنبياء . وقد كره مالك وابن أبي عمران من أصحاب أبي حنيفة وغيرهما أن يقول الداعي : يا سيدي ،

---

(١) إقتباس من قوله تعالى في سورة الإسراء الآية : (٦٧) : ﴿ وإذا مسَّكم الضر في البحر ضل من تدعون إلَّا إياه ، فلمَّا نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : (٢٣) .

(٣) سورة هود ، الآية : (٤٧) .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية : (٣٧) .

وقالوا : قل كما قالت الأنبياء : ربِّ رب . واسمه الحي القيوم يجمع أصل معاني الأسماء والصفات كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع ، ولهذا كان النبي ﷺ يقوله إذا اجتهد في الدعاء .

فإذا سئل المسؤول بشيء ـ والباء للسبب ـ سئل بسبب يقتضي وجود المسؤول ، فإذا قال : أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض ، كان كونه محموداً مناناً بديعَ السموات والأرض يقتضي أن يمن على عبده السائل ، وكونه محموداً هو يوجب أن يفعل ما يحمد عليه ، وحمد العبد له سبب إجابة دعائه . ولهذا أمر المصلي أن يقول : « سمع الله لمن حمده » أي استجاب الله دعاء من حمده ، فالسماع هنا بمعنى الإجابة والقبول كقوله ﷺ : « **أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يُسمع** » أي لا يستجاب . ومنه قول الخليل في آخر دعائه : ﴿ **إنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاء** ﴾[1] ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَفِيكُم سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾[2] وقوله : ﴿ **وَمِنَ الَّذينَ هادُوا سَمَّاعونَ للكَذِبِ سَمَّاعُونَ لقَوْمٍ آخَرينَ لَمْ يأتُوكَ** ﴾[3] أي لم يأتك أولئك الأقوام ، ولهذا أمر المصلي أن يدعو بعد حمد الله بعد التشهد المتضمن الثناء على الله سبحانه . وقال النبي ﷺ لمن رآه يصلي ويدعو ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال : « **عَجِل هذا** » ثم دعاه فقال : « **إذا صلَّى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه وليصل على النبي ﷺ وليدْعُ بعد بما شاء** » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه[4] . وقال عبد الله بن مسعود : كنت أصلي والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر معه ، فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم بالصلاة على نبيه ثم دعوت لنفسي فقال النبي ﷺ : « **سَلْ تُعْطَه** » رواه الترمذي وحسنه . فلفظ السمع يراد به إدراك الصوت ، ويراد به معرفة المعنى مع ذلك ، ويراد به القبول والإستجابة مع الفهم . قال تعالى : ﴿ **وَلَو عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ** ﴾[5] ثم

---

(١) سورة سبأ ، الآية : (٣٩) .

(٢) سورة التوبة ، الآية : (٤٧) .

(٣) سورة المائدة ، الآية : (٤١) .

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب الدعاء وأخرجه ابن ماجة في كتاب الدعاء باب اسم الله الأعظم وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب ٦٥ (٥/٤٨٣) برقم ٣٤٧٧ ، وبلفظ : فليبدأ بتحميد الله . . .

(٥) سورة الأنفال ، الآية : (٢٣) .

قال : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ على هذه الحال التي هم عليها لم يقبلوا الحق ثم ﴿ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُون ﴾ ، فذمهم بأنهم لا يفهمون القرآن ولو فهموه لم يعملوا به .

وإذا قال السائل لغيره : أسألك بالله فإنما سأله بإيمانه بالله ، وذلك سبب لإعطاء من سأله به ، فإنه سبحانه يحب الإحسان إلى الخلق ، لا سيما إن كان المطلوب كف الظلم ، فإنه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم ، وأمره أعظم الأسباب في حض الفاعل ، فلا سبب أولى من أن يكون مقتضياً لمسببه من أمر الله تعالى . وقد جاء في حديث رواه أحمد في مسنده وابن ماجة عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه علَّم الخارج إلى الصلاة أن يقول في دعائه : « **وأسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ، ولكن خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك** » . فإن كان هذا صحيحاً بحق السائلين عليه أن يجيبهم ، وحق العابدين له أن يثيبهم ، وهو حق أوجبه على نفسه لهم ، كما يسأل بالإيمان والعمل الصالح الذي جعله سبباً لإجابة الدعاء كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمَلوا الصَّالحاتِ ويَزيدَهُمْ من فَضْلِهِ ﴾[1] .
وكما يُسأل بوعده لأن وعده يقتضي إنجاز ما وعده ، ومنه قول المؤمنين : ﴿ رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادياً يُنادي للإيمانِ أنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِر لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنَا وَتَوفَّنا مَعَ الأبرار ﴾[2] وقوله : ﴿ إنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمنا وأنْتَ أرحَمَ الرَّاحمينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّاً حَتَّى أنْسُوكُمْ ذِكْري ﴾[3]
ويشبه هذا مناشدة النبي ﷺ يوم بدر حيث يقول : « **اللهمَّ أنجز لي ما وعدتني** »
وكذلك ما في التوراة أن الله تعالى غضب على بني إسرائيل فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ما وعد به إبراهيم فإنه سأله بسابق وعده لإبراهيم .

ومن السؤال بالأعمال الصالحة سؤال الثلاثة الذين أووا إلى غار ، فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله ، لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه محبة تقتضي إجابة صاحبه : هذا سأل ببره لوالديه ، وهذا سأل بعفته التامة ، وهذا سأل

---

(١) سورة الشورى ، الآية : (٢٦) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٩٣) .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان : (١٠٩ و ١١٠) .

بأمانته وإحسانه . وكذلك كان ابن مسعود يقول وقت السحر : « اللهمَّ أمرتني فأطعتك ، ودعوتني فأجبتك ، وهذا سَحَر فاغفر لي » ؛ ومنه حديث ابن عمر أنه كان يقول على الصفا : « اللهمَّ إنك قلت ، وقولك الحق : ﴿ ادعوني أستجبْ لكم ﴾ ، وإنك لا تخلف الميعاد » ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر أنه كان يقوله على الصفا .

فقد تبين أن قول القائل « أسألك بكذا » نوعان : فإن الباء قد تكون للقَسَم ، وقد تكون للسبب . فقد تكون قسماً به على الله ، وقد تكون سؤالاً بسببه . فأما الأول: فالقسم بالمخلوقات لا يجوز على المخلوق فكيف على الخالق ؟ وأما الثاني : وهو السؤال المعظم كالسؤال بحق الأنبياء فهذا فيه نزاع ، وقد تقدم عن أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز ذلك ، فنقول : قول السائل لله تعالى : « أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان » يقتضي أن هؤلاء لهم عند الله جاه ، وهذا صحيح ، فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقتضي أن يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم إذا شفعوا ، مع أنه سبحانه قال : ﴿ مَنْ ذا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذْنِهِ ﴾[1] ويقتضي أيضاً أن من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيداً ، ومن أطاع أمرهم الذي بلغوه عن الله كان سعيداً ، ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضي إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك ، بل جاههم ينفعه إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله ، أو تأسى بهم فيما سنوه للمؤمنين ، وينفعه أيضاً إذا دعوا له وشفعوا فيه ، فأما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعة ، ولا منه سبب يقتضي الإجابة ، لم يكن متشفعاً بجاههم ولم يكن سؤاله بجاههم نافعاً له عند الله ، بل يكون قد سأل بأمر أجنبي عنه ليس سبباً لنفعه . ولو قال الرجل لمطاع كبير : أسألك بطاعة فلان لك ، وبحبك له على طاعتك ، وبجاهه عندك الذي أوجبته طاعته لك [لكان][2] قد سأله بأمر أجنبي لا تعلق له به ، فكذلك إحسان الله إلى هؤلاء المقربين ومحبته لهم وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم إياه ليس في ذلك ما يوجب إجابة دعاء من يسأل بهم ، وإنما يوجب إجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم ، أو سبب منهم

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٥) .

(٢) زيادة على النص لوضوح العبارة .

لشفاعتهم له ، فإذا انتفى هذا وهذا فلا سبب .

نعم لو سأل الله بإيمانه بمحمد ﷺ ومحبته له وطاعته له واتباعه له لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضي إجابة الدعاء بل هذا أعظم الأسباب والوسائل . والنبي ﷺ بيَّن أن شفاعته في الآخرة تنفع أهل التوحيد لا أهل الشرك ، وهي مستحقة لمن دعا له بالوسيلة كما في الصحيح أنه قال : « **إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليَّ فإنه من صلَّى عليَّ مرة صلَّى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ذلك العبد . فمن** سأل الله لي الوسيلة حلَّت عليه شفاعتي يوم القيامة ؟ ، وفي الصحيح أن أبا هريرة قال له : أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « **من قال لا إله إلاَّ الله خالصاً من قلبه** » ، فبين ﷺ أن أحق الناس بشفاعته يوم القيامة من كان أعظم توحيداً وإخلاصاً ، لأن التوحيد جماع الدين والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فهو سبحانه لا يشفع عنده أحد إلاَّ بإذنه ، فإذا شفع محمد ﷺ حدَّ له ربه حداً فيدخلهم الجنة ، وذلك بحسب ما يقوم بقلوبهم من التوحيد والإيمان . وذكر ﷺ أنه من سأل الله له الوسيلة حلت عليه شفاعته يوم القيامة ، فبين أن شفاعته تنال باتباعه بما جاء به من التوحيد والإيمان ، وبالدعاء الذي سن لنا أن ندعو له به .

وأما السؤال بحق فلان فهو مبني على أصلين : أحدهما : ما له من الحق عند الله ، والثاني : هل نسأل الله بذلك كما نسأل بالجاه والحرمة ! أما الأول فمن الناس من يقول للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل ، وقاس المخلوق على الخالق ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم . ومن الناس من يقول : لا حق للمخلوق على الخالق بحال ، لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره ، كما يقول ذلك من يقول من أتباع جهم والأشعري وغيرهما ممن ينتسب إلى السنة . ومنهم من يقول : بل كتب الله على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه حقاً لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه ، لم يوجب ذلك مخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته ، بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم كما قال في الحديث الصحيح الإلهي : « **يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا** » وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[1] وقال

(١) سورة الأنعام ، الآية : (٥٤) .

تعالى : ﴿ وَكَانَ حقاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾[1] وفي الصحيحين عن معاذ عن النبي ﷺ أنه قال : « يا معاذ ، أتدري ما حق الله على عباده ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم قال : « حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . يا معاذ : أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قال : « حقهم عليه أن لا يعذبهم » فعلى هذا القول لأنبيائه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أوجبه على نفسه مع إخباره ، وعلى الثاني يستحقون ما أخبر بوقوعه وإن لم يكن ثم سبب يقتضيه .

فمن قال : ليس للمخلوق على الخالق حق يسأل به ـ كما روي أن الله تعالى قال لداود : وأي حق لآبائك عليّ ؟ [فهو][2] صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والاعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق ، وهذا كما يظنه جهال العبّاد من أن له سبحانه حقاً بعبادتهم . وذلك أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ، ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه : ألم أفعل كذا ! يمن عليه بما يفعله معه ، وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه ، وتخيلُ مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ، ولهذا بيَّن الله سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنيّ عن الخلق كما في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُم أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فعليها وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعبيد ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ولا يَرْضَى لِعِبادِهِ الكُفْرَ وإِنْ تَشْكُروا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[6] وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ

---

(١) سورة الروم ، الآية : (٤٧) .
(٢) زيادة في الأصل لوضوح العبارة .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : (٧) .
(٤) سورة فصلت ، الآية : (٤٦) .
(٥) سورة الزمر ، الآية : (٧) .
(٦) سورة النمل ، الآية : (٤٠) .

لأَزِيدَنَّكُمْ ولَئِنْ كَفَرْتُمْ إنَّ عَذابي لشَديدٌ * وَقَالَ مُوسى إنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ في الأَرْضِ جَميعاً فإنَّ اللَّهَ لَغَنيٌّ حَميدٌ ﴾(1) وقال تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكُفرِ إنَّهم لن يضرُّوا الله شيئاً ﴾(2) وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ البَيْتِ مَن اسْتَطاعَ إليهِ سَبيلاً ، ومَنْ كَفَرَ فإنَّ اللَّهَ غَنيٌّ عَن العَالَمينَ ﴾(3) وقد بيَّن سبحانه أن المانَّ بالعمل فقال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أنْ أسلمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عليَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يمنُّ عَلَيْكُم أن هَداكُم لِلإيمانِ إنْ كنْتُمْ صادِقِينَ ﴾(4) وقال تعالى : ﴿ واعْلَمُوا أنَّ فيكُمْ رَسُولَ اللَّه لَوْ يُطيعُكُمْ في كثيرٍ منَ الأمر لَعَنِتُّمْ ، ولكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إلَيْكُمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ وكَرَّهَ إلَيْكُم الكُفْرَ والْفُسُوقَ والعِصْيانَ أولئكَ هُمُ الرَّاشدونَ . فَضْلاً من الله وَنِعمَةً واللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴾(5) وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يَا عِبادي إنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضرُّوني ، ولَنْ تَبْلُغُوا نَفْعي فَتَنْفَعُوني . يا عبادي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ والنَّهارِ وأنا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً ولا أُبالي، فَاسْتَغفروني أغْفِرْ لَكُمْ . يا عِبادي لَوْ أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا على أفجرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا نَقصَ ذَلِكَ منْ مُلْكي شَيْئاً . يا عِبادي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُم وجِنَّكُم كانُوا على أتْقى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم ما زادَ ذَلكَ في مُلْكي شَيْئاً . يا عِبادي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسكُمْ وجِنَّكُمْ قامُوا في صَعيدٍ واحِدٍ فَسَألوني فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مِنْهُمْ مَسْألَتَهُ مَا نقصَ ذلِكَ ممَّا عِنْدي إلاَّ كما يَنْقُصُ المِخيَطُ إذا أدخل البحر » .

وبين الخالق تعالى والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة : منها أن الرب تعالى غنيّ بنفسه عما سواه ، ويمتنع أن يكون مفتقراً إلى غيره بوجه من الوجوه . والملوك وسادة العبيد محتاجون إلى غيره حاجة ضرورية . ومنها أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التائبين فهو الذي يخلق

---

(1) سورة إبراهيم ، الآيتان : (7 و 8) .
(2) سورة آل عمران ، الآية : (176) .
(3) سورة آل عمران ، الآية : (97) .
(4) سورة الحجرات ، الآية : (17) .
(5) سورة الحجرات ، الآيتان : (7 و 8) .

ذلك وييسره فلم يحصل ما يحبه ويرضاه إلاَّ بقدرته ومشيئته . وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقرّون بأن الله هو المنعم على عباده بالإيمان ، بخلاف القدَرية . والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره . ومنها أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم كما قال قتادة : إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم لحاجته إليهم ، ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم ، بل أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم . بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه وينهاه عما ينهاه بخلاً عليه . وهذا أيضاً ظاهر على مذهب السلف وأهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته ويقولون : إنه لم يأمر العباد إلاَّ بخير ينفعهم ، ولم ينههم إلاَّ عن شر يضرهم . بخلاف المجبرة الذين يقولون : إنه قد يأمرهم بما يضرهم وينهاهم عما ينفعهم . ومنها أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وهو المنعم بالقدرة والحواسّ وغير ذلك مما به يحصل العلم والعمل الصالح ، وهو الهادي لعباده ، فلا حول ولا قوة إلاَّ به . ولهذا قال أهل الجنة : ﴿ **الحمدُ للَّهِ الذي هَدانا وما كُنَّا لِنَهْتدي لولا أنْ هَدانا الله ، لقدْ جاءتْ رُسُلُ ربِّنا بالحقّ** ﴾[1] وليس يقدر المخلوق على شيء من ذلك . ومنها أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى ، فلو قدِّر أن العبادة جزاء النعمة لم تقم العبادة بشكر قليل منها ، فكيف والعبادة من نعمته أيضاً . ومنها أن العباد لا يزالون مقصِّرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته ، فلن يدخل أحد الجنة بعمله ، وما من أحد إلاَّ وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة لها : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِنْ دَابَّة** ﴾[2] وقوله ﷺ : « **لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله** » لا يناقض قوله تعالى : ﴿ **جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلونَ** ﴾ فإن المنفي نُفي بباء المقابلة والمعارضة كما يقال بعت هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بباء السبب ، فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان سبباً للجزاء ، ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **لن يدخل أحد الجنة بعمله** » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « **ولا أنا ، إلاَّ أن يتغمدني الله برحمة وفضل منه** » وروي « **بمغفرته** » ومن هذا أيضاً الحديث الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن الله لو عذَّب أهل سمٰواته**

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : (٤٣) .

(٢) سورة فاطر ، الآية : (٤٥) .

وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث .

ومن قال : بل للمخلوق على الله حق فهو صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه ، فإن الله صادق لا يخلف الميعاد ، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته . وهذا المستحق لهذا الحق إذا سأل الله تعالى به يسأل الله تعالى إنجاز وعده ، أو يسأله بالأسباب التي علق الله بها المشيئات كالأعمال الصالحة ، فهذا مناسب . وأما غير المستحق لهذا الحق إذا سأله بحق ذلك الشخص فهو كما سأله بجاه ذلك الشخص ، وذلك سؤال بأمر أجنبي عن هذا السائل لم يسأله بسبب يناسب إجابة دعائه . وأما سؤال الله بأسمائه وصفاته التي تقتضي ما يفعله بالعباد من الهدى والرزق والنصر فهذا أعظم ما يسأل الله تعالى به . فقول المنازع : « لا يسأل بحق الأنبياء ، فإنه لا حقَّ للمخلوق على الخالق ، ممنوع ، فإنه قد ثبت في الصحيحين حديث معاذ الذي تقدم إيراده ، وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[1] ﴿ وكان حَقاً عَلَينا نَصْرُ المُؤمِنِينَ ﴾[2] . فيقال للمنازع : الكلام في هذا في مقامين : أحدهما في حق العباد على الله ، والثاني في سؤاله بذلك الحق . أما الأول فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بأن يجيبهم ، وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد ، قال الله تعالى : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حقاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾[3] ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[4] ، ﴿ فلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُله ﴾[5] فهذا مما يجب وقوعه بحكم الوعد باتفاق المسلمين . وتنازعوا : هل عليه واجب بدون ذلك ؟ على ثلاثة أقوال ـ كما تقدم ـ قيل : لا يجب لأحد عليه حق بدون ذلك ، وقيل : بل يجب عليه واجبات ويحرم عليه محرمات بالقياس على عباده ، وقيل : هو أوجب على نفسه وحرَّم على نفسه ، فيجب عليه ما أوجبه على نفسه ، ويحرم عليه ما حرمه على نفسه

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (٥٤) .

(٢) سورة الروم ، الآية : (٤٧) .

(٣) سورة النساء ، الآية : (١٢٢) .

(٤) سورة الروم ، الآية : (٦) .

(٥) سورة إبراهيم ، الآية : (٤٧) .

كما ثبت في الصحيح من حديث أبي ذر كما تقدم . والظلم ممتنع منه باتفاق المسلمين ، لكن تنازعوا في الظلم الذي لا يقع فقيل : هو الممتنع ، وكل ممكن يمكن أن يفعله لا يكون ظلماً ، لأن الظلم إما التصرف في ملك الغير ، وإما مخالفة الأمر الذي يجب عليه طاعته وكلاهما ممتنع منه . وقيل : بل ما كان ظلماً من العباد فهو ظلم منه . وقيل : الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً** ﴾[1] قال المفسرون : هو أن يُحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه ، والهضم أن يهضم من حسناته . وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً** ﴾[2] ، ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** ﴾[3] .

أما المقام الثاني فإنه يقال : ما بيَّن الله ورسوله أنه حق للعباد على الله فهو حق ، لكن الكلام في السؤال بذلك ، فيقال : إن كان الحق الذي سأل به سبباً لإجابة السؤال حَسُنَ السؤال به كالحق الذي يجب لعابديه وسائليه ، وأما إذا قال السائل : بحق فلان وفلان ، فأولئك إذا كان لهم عند الله حق أن لا يعذبهم وأن يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم ـ كما وعدهم بذلك وأوجبه على نفسه ـ فليس في استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله سبباً لمطلوب هذا السائل ، فإن ذلك استحق ما استحقه بما يسره الله له من الإيمان والطاعة . وهذا لا يستحق ما استحقه ذلك . فليس في إكرام الله لذلك سبب يقتضي إجابة هذا . وإن قال : السبب هو شفاعته ودعاؤه فهذا حق إذا كان قد شفع له ودعا له ، وإن لم يشفع له ولم يدع له لم يكن هناك سبب . وإن قال : السبب هو محبتي له وإيماني به وموالاتي له ، فهذا سبب شرعي وهو سؤال الله وتوسل إليه بإيمان هذا السائل ومحبته لله ورسوله وطاعته لله ورسوله ، لكن يجب الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله : فمن أحب مخلوقاً كما يحب الخالق فقد جعله نِدّاً لله ، وهذه المحبة تضره ولا تنفعه . وأما من كان الله تعالى أحبَّ إليه مما سواه ، وأحبَّ أنبياءه وعباده الصالحين له فحبه لله تعالى هو أنفع

(١) سورة طه ، الآية : (٦١) .

(٢) سورة النساء ، الآية : (٤٠) .

(٣) سورة هود ، الآية : (١٠١) .

الأشياء . والفرق بين هذين من أعظم الأمور . فإن قيل : إذا كان التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته على وجهين ـ تارة يتوسل بذلك إلى ثوابه وجنته (وهذا أعظم الوسائل) ، وتارة يتوسل بذلك في الدعاء كما ذكرتم نظائره ـ فيحمل قول القائل : أسألك بنبيك محمد ، على أنه أراد : إني أسألك بإيماني به وبمحبته ، وأتوسل إليك بإيماني به ومحبته ، ونحو ذلك ، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع . قيل : من أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع ، وإذا حمل على هذا المعنى لكلام من توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره كان هذا حسناً ، وحينئذٍ فلا يكون في المسألة نزاع ، ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى ، فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر ، وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون التوسل به بالتوسل بدعائه وشفاعته وهذا جائز بلا نزاع ، ثم إن أكثر الناس في زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ .

فإن قيل : فقد يقول الرجل لغيره بحق الرحم ، قيل : الرحم توجب على صاحبها حقاً لذي الرحم كما قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾[1] وقال النبي ﷺ : « **الرحم شُجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله** »[2] وقال : « **لما خلقَ الله الرحمَ تعلقتْ بحقوي الرحمن**[2] **وقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قد رضيت** » . وقال ﷺ : « **يقول الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بَتّته** » وقد روي عن علي أنه كان إذا سأله ابن أخيه بحق جعفر أبيه أعطاه لحق جعفر على عليّ . وحق ذي الرحم باق بعد موته كما في الحديث أن رجلاً قال : يا رسول الله ! هل بقي من برِّ أبوي شيء أبرُّهما به بعد موتهما ؟ قال : « **نعم ! الدعاء لهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ وعدهما من بعدهما ، وصلة رحمك التي لا رحم لك إلاَّ من قِبَلهما** » ، وفي الحديث الآخر حديث ابن عمر : « [إن] من أبرّ البرّ أن يصل الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يولي »[3] . فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره .

---

(١) سورة النساء ، الآية : (١) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ مقارب في كتاب البر والصلة (٤/١٥٩) .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب في بر الوالدين (٥/٣٥٣) برقم ٥١٤٣ ، وأخرجه مسلم =

والذي قاله أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم من العلماء ـ من أنه لا يجوز أن يسأل الله تعالى بمخلوق : لا بحق الأنبياء ولا غير ذلك ـ يتضمن شيئين كما تقدم : أحدهما الإقسام على الله سبحانه وتعالى به ، وهذا منهيٌّ عنه عند جماهير العلماء كما تقدم ، كما ينهى أن يقسم على الله بالكعبة والمشاعر باتفاق العلماء . والثاني : السؤال به ، فهذا يجوّزه طائفة من الناس ، ونقل في ذلك آثار من بعض السلف ، وهو موجود في دعاء كثير من الناس ، لكنّ ما روي عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيفٌ بل موضوع . وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة ، إلاّ حديث الأعمى الذي علّمه أن يقول : « أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرّحمن » ، وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه ، فإنه صريح في أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ، وهو طلبَ من النبي ﷺ الدعاء، وقد أمره النبي ﷺ أن يقول : « اللهمّ شَفِّعْه فيَّ » ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبي ﷺ ، وكان ذلك مما يعد من آيات النبي ﷺ . ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدْعُ لهم النبي ﷺ بالسؤال به لم تكن حالهم كحالة .

ودعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار وقوله : « اللهمّ إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته ، إذ لو كان هذا مشروعاً لم يعدل عمر المهاجرين والأنصار عن السؤال بالرسول إلى السؤال بالعباس ، وساغ النزاع في السؤال بالأنبياء والصالحين دون الإقسام بهم ، لأن بين السؤال والإقسام فرقاً ، فإن السائل متضرع ذليل يسأل بسبب يناسب الإجابة ، والمقسم أعلى من هذا ، فإنه طالب مؤكد طلبه بالقسم ، والمقسم لا يقسم إلاّ على من يرى أنه يبرُّ قسمه ، فإبرار القسم خاص ببعض العباد ، وأما إجابة السائلين فعام ، فإن الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وإن كان كافراً ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلاّ أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجلّ له دعوته ، وإما أن**

= في كتاب البر باب فضل صلة أصدقاء الأب برقم ٢٥٥٢ وأخرجه الترمذي في كتاب البر باب في إكرام صديق الوالد برقم ١٩٠٤ .

يخَّر له من الخير مثلها ، وإما أن يصرف عنه من الشرِّ مثلها » قالوا : يا رسول إذن نكثر ؟ قال : « لله أكثر » .

وهذا التوسل بالأنبياء بمعنى السؤال بهم ـ وهو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم أنه لا يجوز ، وليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك ، فضلاً أن يجعل هذا من مسائل السبب فمن نقل عن مذهب مالك : أنه جوَّز التوسل به بمعنى الإقسام به أو السؤال به فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه فضلاً عن أن يقول مالك : أنه كره للداعي أن يقول : يا سيدي سيدي ، وقال : قل كما قالت الأنبياء : يا رب يا رب يا كريم . وكره أيضاً أن يقول : يا حنان يا منان . فإنه ليس بمأثور عنه . فإنه كان مالك يكره مثل هذا الدعاء إذ لكم يكن مشروعاً عنده ، فكيف يجوز عنده أن يسأل الله بمخلوق نبياً كان أو غيره ، وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق ، لا نبي ولا غيره ، بل قال عمر : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . فيسقون . وكذلك ثبت عن ابن عمر وأنس وغيرهما أنهم كانوا إذا أجدبوا إنما يتوسلون بدعاء النبي ﷺ واستسقائه ، لم ينقل عن أحد منهم أنه كان في حياته ﷺ سأل الله تعالى بمخلوق ، لا به ولا بغيره ، لا في الاستسقاء ولا في غيره . وحديث الأعمى سنتكلم عليه إن شاء الله تعالى . فلو كان السؤال به معروفاً عند الصحابة لقالوا لعمر : إن السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس ، فلمَ نعدل عن الأمر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل بأفضل الخلق إلى أن نتوسل ببعض أقاربه ، وفي ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الأفضل وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما ؟ ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجدب . والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين ، فتوسلوا بيزيد بن الأسود الجرشي[1] كما توسل عمر بالعباس . وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم أنه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح ، قالوا : وإن كان من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل ،

---

(١) أخرج أبو زرعة الدمشقي ويعقوب بن سفيان في تاريخيهما بسند صحيح عن سليم بن عامر أن الناس قحطوا بدمشق ، فخرج معاوية يستسقي بيزيد بن الأسود فسقوا . (انظر الإصابة ٣/٦٧٣) .

اقتداء بعمر . ولم يقل أحد من أهل العلم أنه يسأل الله تعالى في ذلك لا بنبي ولا بغير نبي . وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره بعد موتهم أو نقل ذلك عن إمام من أئمة المسلمين - غير مالك - كالشافعي وأحمد وغيرهما فقد كذب عليهم ، ولكن بعض الجهال ينقل هذا عن مالك ويستند إلى حكاية مكذوبة عن مالك ، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذي فيها هو هذا بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ، ولكن من الناس من يحرف نقلها ، وأصلها ضعيف كما سنبينه إن شاء الله تعالى ، والقاضي عياض لم يذكرها في كتابه في باب زيارة قبره ، بل ذكر هناك ما هو المعروف عن مالك وأصحابه ، وإنما ذكرها في سياق أن حرمة النبي ﷺ بعد موته ، وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه . وذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السختياني فقال : ما حدثتكم عن أحد إلاّ وأيوب أفضل منه . قال : وحج حجتين فكنت أرمقه ، فلا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه ، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه . وقال مصعب بن عبد الله : كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه . فقيل له يوماً في ذلك؟فقال : لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون ، لقد كنت أرى محمد بن المنكدر - وكان سيد القراء - لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلاّ يبكي حتى نرحمه ، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد - وكان كثير الدعابة والتبسم - فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرّ لونه ، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلاّ على طهارة . ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلاّ على ثلاث خصال : إما مصلياً ، وإما صامتاً ، وإما يقرأ القرآن . ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله . ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع ، ولقد رأيت الزهري - وكان لمَن أهنأ الناس وأقربهم - فإذا ذكره عند النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته . ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين ، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس ويتركوه .

وهذا كله نقله القاضي عياض من كتب أصحاب مالك المعروفة ، ثم ذكر الحكاية بإسناد غريب منقطع رواها عن غير واحد إجازة ، قالوا : حدثنا أبو العباس

أحمد بن عمر بن دلهاث قال : حدثنا أبو الحسن علي بن فهر ، ثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج ، ثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب ، ثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل ، ثنا ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر أميرُ المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال له مالك : يا أمير المؤمنين ، لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله أدب قوماً فقال : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوتِ النَّبِيِّ ﴾[1] الآية ، ومدح قوماً فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﴾[2] الآية ، وذمَّ قوماً فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ ﴾[3] الآية ، وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً . فاستكان لها أبو جعفر ، فقال : يا أبا عبد الله ، أستقبلُ القبلة وأدعو ؟ أم أستقبلُ رسولَ الله ﷺ ؟ فقال : ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جاؤوكَ فاستَغْفَرُوا اللَّهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولَ لَوَجَدوا اللَّهَ تَوَّاباً رحيماً ﴾[4] .

قلت : وهذه الحكاية منقطعة فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكاً لاسيما في زمن أبي جعفر المنصور ، فإن أبا جعفر توفي بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وتوفي مالك سنة تسع وسبعين ومائة . وتوفي محمد بن حميد الرازي سنة ثمان وأربعين ومائتين ، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلَّا وهو كبير مع أبيه ، وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث ، كذَّبه أبو زرعة وابن وارة ، وقال صالح بن محمد الأسدي : ما رأيت أحداً أجرأ على الله منه وأحذق بالكذب منه . وقال يعقوب بن شيبة : كثير المناكير . وقال النسائي : ليس بثقة . وقال ابن حبان : ينفرد عن الثقات بالمقلوبات . وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين . وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد بن إسماعيل السهمي توفي سنة تسع وخمسين ومائتين . وفي الإسناد أيضاً من لا يعرف حاله . وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : (٢) .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : (٣) .

(٣) سورة الحجرات ، الآية : (٤) .

(٤) سورة النساء ، الآية : (٦٤) .

عنه ، ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند ، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته ! هذا إن ثبتت عنه ، وأصحاب مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول له في مسألة في الفقه ، بل إذا روى عنه الشاميون كالوليد بن مسلم ومروان بن محمد الطاطري ضعفوا رواية هؤلاء، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين ، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه رواها أحد من الخراسانيين لم يدركه وهو ضعيف عند أهل الحديث !

مع أن قوله : « وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة » إنما يدل على توسل آدم وذريته به يوم القيامة ، وهذا هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ، وهذا حق كما جاءت به الأحاديث الصحيحة حين يأتي الناس يوم القيامة آدمَ ليشفع لهم فيردُّهم آدم إلى نوح ثم يردهم نوح إلى إبراهيم وإبراهيم إلى موسى وموسى إلى عيسى ويردهم عيسى إلى محمد ﷺ فإنه كما قال : « أنا سيد ولد آم يوم القيامة ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر » ولكنها مناقضة لمذهب مالك المعروف من وجوه :

(أحدها) قوله : أستقبل القبلة وأدعو ، أم أستقبل رسول الله ﷺ وأدعو ؟ فقال : ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . فإن المعروف عن مالك وغيره من الأئمة وسائر السلف من الصحابة والتابعين أن الداعي إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ويدعو في مسجده ، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه ، بل إنما يستقبل القبر عند السلام على النبي ﷺ والدعاء له . هذا قول أكثر العلماء كمالك في إحدى الروايتين والشافعي وأحمد وغيرهم . وعند أصحاب أبي حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه أيضاً . ثم منهم من قال : يجعل الحجرة على يساره ويسلم عليه ـ وقد رواه ابن وهب عن مالك ـ، ومنهم من قال : بل يستدبر الحجرة ويسلم عليه وهذا هو المشهور عندهم ، ومع هذا فكره مالك أن يطيل القيام عند القبر . لذلك قال القاضي عياض في المبسوط عن مالك قال : لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو ، ولكن يسلم ويمضي : قال : وقال نافع : كان ابن عمر يسلم على القبر ، رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبي ﷺ ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي ، ثم ينصرف . ورؤي واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه . قال : وعن ابن أبي قسيط

والقعنبي كان أصحاب النبي ﷺ إذا خلا المسجد جسّوا برمانة المنبر التي تلقاء القبر بميامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون . قال : وفي الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الليثي أنه كان ـ يعني ابن عمر ـ يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر ، وعند ابن القاسم والقعنبي : ويدعو لأبي بكر وعمر . قال مالك في رواية ابن وهب : يقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقال في المبسوط : ويسلم على أبي بكر وعمر . قال أبو الوليد الباجي : وعندي أن يدعو للنبي ﷺ بلفظ الصلاة ، ولأبي بكر وعمر بلفظ السلام لما في حديث ابن عمر من الخلاف . وهذا الدعاء يفسر الدعاء المذكور في رواية ابن وهب ، قال مالك في رواية ابن وهب : إذا سلم على النبي ﷺ ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر . فهذا هو السلام عليه والدعاء له بالصلاة عليه كما تقدم تفسيره، وكذلك كل دعاء ذكره أصحابه كما ذكر ابن حبيب في الواضحة وغيره قال : وقال مالك في المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر ، وإنما ذلك للغرباء . وقال فيه أيضاً : ولا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر عمر.
قيل له : فإن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر ، وربما وقفوا في الجمعة أو الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة . فقال مالك : لم يبلغني هذا عن أهل ببلدنا ، وتركه واسع ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده . قال ابن القاسم : ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوا أتوا القبر فسلموا . قال : ولذلك رأي ، قال أبو الوليد الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء ، لأن الغرباء قصدوا لذلك ، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم .
قال : وقال رسول الله ﷺ : « **اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد** » ، « **اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » قال : وقال النبي ﷺ : « **لا تجعلوا قبري عيداً** »[1] . قال ومن كتاب أحمد بن شعبة فيمن وقف بالقبر لا يلتصق به ولا يمسه ولا يقف عنده طويلاً ، وفي (العتبية) يعني عن مالك : يبدأ بالركوع قبل السلام في

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك باب في زيارة القبور (٢ / ٥٣٤) برقم ٢٠٤٢ .

مسجد النبي ﷺ[1] ، وأحب مواضع التنقل فيه مصلى النبي ﷺ حيث العمود المخلق ، وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف . قال : والتنقل فيه للغرباء أحب إلي من التنفل في البيوت . . .

فهذا قول مالك وأصحابه ، وما نقلوه عن الصحابة يبين أنهم لم يكونوا يقصدون القبر إلا للسلام على النبي ﷺ والدعاء له . وقد كره مالك إطالة القيام لذلك ، وكره أن يفعله أهل المدينة كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه ، وإنما يفعل ذلك الغرباء ومن قدم من سفر أو خرج له ، فإنه تحية للنبي ﷺ . فأما إذا قصد الرجل الدعاء لنفسه فإنما يدعو في مسجده مستقبل القبلة كما ذكروا ذلك عن أصحاب النبي ﷺ ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك عند القبر بل ولا أطال الوقوف عند القبر للدعاء للنبي ﷺ ، فكيف بدعائه لنفسه ؟

وأما دعاء الرسول وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته ، فهذا لم يفعله أحد من السلف ، ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعاً لفعله الصحابة والتابعون ، وكذلك السؤال به ، فكيف بدعائه وسؤاله بعده موته ؟ فدل ذلك على أن ما في الحكاية المنقطعة من قوله : « استقبله واستشفع به » كذب على مالك ، مخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم التي يفعلها مالك وأصحابه ونقلها سائر العلماء ، إذا كان أحد منهم لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه فضلاً عن أن يستقبله ويستشفع به يقول له يا رسول الله اشفع لي أو أدع لي ، أو يشتكي إليه المصائب في الدين والدنيا ، أو يطلب منه أو من غيره من الموتى من الأنبياء والصالحين ، أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له ، أو يشتكي إليهم المصائب ، فإن هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة ، ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ولا مما أمر به أحد من أئمة المسلمين ، وإن كانوا يسلمون عليه إذ كان يسمع السلام عليه من القريب ويبلّغ سلام البعيد . وقد احتج أحمد وغيره بالحديث الذي رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد من حديث حيوة بن شريح المصري حدثنا أبو صخر عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه

---

(1) أي أداء ركعتي تحية المسجد .

قال : « **ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام** »[1] .

وعلى هذا الحديث اعتمد الأئمة في السلام عليه عند قبره صلوات الله وسلامه عليه ، فإن أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة لا يعتمد على شيء منها في الدين . ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئاً منها ، وإنما يرويها من يروي الضعاف كالدارقطني والبزار وغيرهما ، وأجود حديث فيها ما رواه عبد الله بن عمر العمري وهو ضعيف والكذب ظاهر عليه ـ مثل قوله : « من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي » فإن هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين ، فإن من زاره في حياته وكان مؤمناً به كان من أصحابه لا سيما إن كان من المهاجرين إليه المجاهدين معه ، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال : « **لا تسبُّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه** »[2] أخرجاه في الصحيحين . والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه ، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين ، بل ولا شرع السفر إليه ، بل هو منهي عنه .

وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب ، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب . فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا إليه في حياته ، فكيف بالسفر المنهي عنه ؟ وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره صلوات الله وسلامه عليه ، أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين ، لم يكن عليه أن يوفي بنذره بل ينهى عن ذلك . ولو نذر السفر إلى مسجده والمسجد الأقصى للصلاة ففيه قولان للشافعي ، أظهرهما عنه : يجب ذلك : وهو مذهب مالك أحمد . والثاني : لا يجب وهو مذهب أبي حنيفة ، لأن من أصله أنه لا يجب من النذر إلا ما كان واجباً بالشرع ، وإتيان هذين المسجدين ليس واجباً بالشرع ، فلا يجب بالنذر وعنده . وأما الأكثرون

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك باب زيارة القبور (٢/٥٣٤) برقم ٢٠٤١ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ، وأخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب في فضل من بايع تحت الشجرة ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، ومعنى قوله : نصيفه يعني نصف المد . والمد هو ما يملأ راحة كفي الرجل المعتدل .

فيقولون : هو طاعة لله ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال : « **من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه** » . وأما السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين فلا يجب بالنذر عند أحد منهم ، لأنه ليس بطاعة ، فكيف يكون من فعل هذا كواحد من أصحابه ؟ وهذا مالك كره أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله ﷺ ، واستعظمه . وقد قيل : إن ذلك ككراهية زيارة القبور ، وقيل : لأن الزائر أفضل من المزور ، وكلاهما ضعيف عند أصحاب مالك . والصحيح ذلك لأن لفظ زيارة القبر مجمل يدخل فيها الزيارة البدعية التي هي من جنس الشرك ، فإن زيارة قبور الأنبياء وسائر المؤمنين على وجهين كما تقدم ذكره : زيارة شرعية ، وزيارة بدعية . فالزيارة الشرعية بها السلام عليهم والدعاء لهم ، كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصلي عليه صلاة الجنازة ، فهذه الزيارة الشرعية ، والثاني : أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجة منهم ، أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت ، أو أن الإقسام بهم على الله وسؤاله سبحانه بهم أمر مشروع يقتضي إجابة الدعاء ، فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها . فإذا كان لفظ الزيارة مجملاً يحتمل حقاً وباطلاً عدل عنه إلى لفظ لا لبس فيه كلفظ السلام عليه ، ولم يكن لأحد أن يحتج على مالك بما روي في زيارة قبره أو زيارته بعد موته ، فإن هذه كلها أحاديث ضعيفة بل موضوعة ، لا يحتج بشيء منها في أحكام الشريعة .

والثابت عنه ﷺ أنه قال : « **ما بين (بيتي) ومنبري روضة من رياض الجنة** »[1] ، هذا هو الثابت في الصحيح ، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال : (قبري) . وهو ﷺ حين قال : هذا القول ، لم يكن قد قبر بعدُ صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة ، إنما تنازعوا في موضع دفنه ، ولو كان هذا عندهم لكان نصاً في محل النزاع ، ولكن دفن في حجرة عائشة في الموضع الذي مات فيه ، بأبي هو وأمي صلوات الله عليه وسلامه . ثم لما وسع المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان نائبه على المدينة عمر بن عبد العزيز أمره أن يشتري الحجر[2] ويزيدها في المسجد ، وكانت الحجر من جهة المشرق والقبلة فزيدت في

---

(١) وعند الترمذي في كتاب المناقب باب في فضل المدينة (٥/٦٧٥) برقم ٣٩١٥ و ٣٩١٦ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « وما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » .

(٢) أي حجر نساء النبي ﷺ والتي كانت تجاور مسجده عليه الصلاة والسلام .

المسجد ودخلت حجرة عائشة في المسجد من حينئذ ، وبنوا الحائط البراني مسنماً محرفاً ، فإنه ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي أنه ﷺ قال : « **لا تجلسوا على القبور ولا تصلّوا إليها** »[1] لأن ذلك يشبه السجود لها ، وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله تعالى . وكما نهى عن اتخاذها مساجد نهى عن قصد الصلاة عندها ، وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله سبحانه والدعاء له . فمن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها فقد قصد نفس الحرام الذي سدَّ الله ورسوله ذريعته ، وهذا بخلاف السلام المشروع حسبما تقدم .

وقد روى سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام** » رواه النسائي وأبو حاتم في صحيحه ، وروي نحوه عن أبي هريرة . فهذا فيه أن سلام البعيد تبلغه الملائكة . وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « **أكثروا عليَّ من الصلاة في كل يوم جمعة ، فإن صلاة أمتي تعرض عليَّ يومئذ ، فمن كان أكثرهم عليَّ صلاة كان أقربهم مني منزلة** » وفي مسند الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني** » ورواه أبو داود . قال القاضي عياض وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **من صلى عليَّ عند قبري سمعته . ومن صلى عليَّ نائياً أبلغته** » . وهذا قد رواه محمد بن مروان السديّ عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة . وهذا هو السدي الصغير وليس بثقة ، وليس هذا من حديث الأعمش . وروي أبو يعلى الموصلي في مسنده عن موسى بن محمد بن حبان عن أبي بكر الحنفي : حدثنا عبد الله بن نافع ، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن ، سمعت الحسن بن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « **صلُّوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً ، ولا تتخذوا بيتي عيداً . صلوا عليَّ وسلموا فإن صلاتكم وسلامكم**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز ، وأخرجه أبو داود في كتاب الجنائز باب كراهية القعود على القبر ، وأخرجه الترمذي في كتاب الجنائز باب كراهية المشي على القبور والجلوس عليها والصلاة إليها .

يبلغني » . وروى سعيد بن منصور في سننه أن عبد الله بن حسين بن حسن بن عليٍّ بن أبي طالب رأى رجلاً يكثر الاختلاف[1] إلى قبر النبي ﷺ قال له : يا هذا ! إن رسول الله ﷺ قال : « **لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني** » فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء . وروى هذا المعنى عن علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن علي بن أبي طالب ، ذكره أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ في مختاره الذي هو أصح من صحيح الحاكم . وذكر القاضي عياض عن الحسن بن علي قال : إذا دخلت فسلم على النبي ﷺ فإن رسول الله ﷺ قال : « **لا تتخذوا بيتي عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليَّ حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم** » .

ومما يوهن هذه الحكاية أنه قال فيها : « **ولِمَ تصرفُ وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى يوم القيامة** » إنما يدل على أنه يوم القيامة تتوسل الناس بشفاعته وهذا حق كما تواترت به الأحاديث ، لكن إذا كان الناس يتوسلون بدعائه وشفاعته يوم القيامة كما كان أصحابه يتوسلون بدعائه وشفاعته في حياته ، فإنما ذاك طلب لدعائه وشفاعته ، فنظير هذا ـ لو كانت الحكاية صحيحة ـ أن يطلب منه الدعاء والشفاعة في الدنيا عند قبره ، ومعلوم أن هذا لم يأمر به النبي ﷺ ولا سنّه لأمته ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحسنه أحد من أئمة المسلمين لا مالك ولا غيره من الأئمة ، فكيف يجوز أن ينسب إلى مالك مثل هذا الكلام الذي لا يقوله إلا جاهل لا يعرف الأدلة الشرعية ولا الأحكام المعلومة بأدلتها الشرعية ، مع علو قدر مالك وعظم فضيلته وإمامته ، وتمام رغبته في اتباع السنة وذم البدع وأهلها ؟ وهل يأمر بهذا أو يشرعه إلا مبتدع ؟ فلو لم يكن عن مالك قول يناقض هذا لعلم أنه لا يقول مثل هذا .

ثم قال في الحكاية « استقبله واستشفع به فيشفعك الله » والاستشفاع به معناه في اللغة أن يطلب منه الشفاعة كما يستشفع الناس به يوم القيامة ، وكما كان أصحابه يستشفعون به ، ومنه الحديث الذي في السنن أن أعرابياً قال : يا رسول الله : جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال ، فادعُ الله لنا ، فإنا نستشفع بالله عليك ، ونستشفع

---

(١) أي الزيارة .

بك على الله ، فسبّح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال : « **ويحك أتدري ما تقول ؟ شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه** » وذكر تمام الحديث فأنكر قوله : « نستشفع بالله عليك » ومعلوم أنه لا ينكر أن يُسأل المخلوق بالله أو يقسم عليه بالله ، وإنما أنكر أن يكون الله شافعاً إلى المخلوق ، ولهذا لم ينكر قوله : « نستشفع بك على الله » فإنه هو الشافع المشفع .

وهم ـ لو كانت الحكاية صحيحة ـ إنما يجيئون إليه لأجل طلب شفاعته ﷺ ولهذا قال في تمام الحكاية : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهم جَاءوكَ ﴾[1] الآية ، وهؤلاء إذا شرع لهم أن يطلبوا منه الشفاعة والاستغفار بعد موته فإذا أجابهم فإنه يستغفر لهم ، واستغفاره لهم دعاء منه وشفاعة أن يغفر الله لهم . وإذا كان الاستشفاع منه طلب شفاعته فإنما يقال ذلك : « استشفع به فيشفعه الله فيك » لا يقال : فيشفعك الله فيه وهذا معروف الكلام ، ولغة النبي ﷺ وأصحابه وسائر العلماء ، يقال : شفع فلان في فلان فشفع فيه . فالمشفع الذي يشفعه المشفوع إليه هو الشفيع المستشفع به ، لا السائل الطالب من غيره أن يشفع له ، فإن هذا ليس هو الذي شفع ، فمحمد ﷺ هو الشفيع المشفع ، ليس المشفع الذي يستشفع به . ولهذا يقول في دعائه : يا رب شفعني ، فيشفعه الله فيطلب من الله سبحانه أن يشفعه لا أن يشفع طالبي شفاعته ، فكيف يقول : واستشفع به فيشفعك الله ؟

وأيضاً فإن طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعاً عند أحد من أئمة المسلمين ، ولا ذكر هذا أحد من الأئمة الأربعة وأصحابهم القدماء ، وإنما ذكر هذا بعض المتأخرين : ذكروا حكاية عن العتبي أنه رأى أعرابياً أتى قبره وقرأ هذه الآية وأنه رأى في المنام أن الله غفر له . وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين الذين يفتي الناس بأقوالهم ، ومن ذكره لم يذكر عليها دليلاً شرعياً . ومعلوم أنه لو كان طلب دعائه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعاً لكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أعلم بذلك وأسبق من غيرهم ، ولكان أئمة المسلمين يذكرون ذلك وما أحسن ما قال مالك: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » قال : ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . فمثل هذا

---

(١) سورة النساء ، الآية : (٦٤) .

الأمام كيف يشرع دينا لم ينقل عن أحد السلف ، ويأمر الأمة بأن يطلبوا الدعاء والشفاعة والاستغفار بعد موت الأنبياء والصالحين منهم عند قبورهم ، وهو أمر لم يفعله أحد من سلف الأمة ؟

ولكن هذا اللفظ الذي في الحكاية يشبه لفظ كثير من العامة الذين يستعملون لفظ الشفاعة في معنى التوسل ، فيقول أحدهم : اللهم إنا نستشفع إليك بفلان وفلان أي نتوسل به . ويقولون لمن توسل في دعائه بنبي أو غيره « قد تشفع به » من غير أن يكون المستشفع به شفع له ولا دعا له، بل وقد يكون غائباً لم يسمع كلامه ولا شفع له ، وهذا ليس هو لغة النبي ﷺ وأصحابه وعلماء الأمة ، بل ولا هو لغة العرب ، فإن الاستشفاع طلب الشفاعة . والشافع هو الذي يشفع السائل فيطلب له ما يطلب من المسؤول المدعو المشفوع إليه . وأما الاستشفاع بمن لم يشفع للسائل ولا طلب له حاجة بل وقد لا يعلم بسؤاله ، فليس هذا استشفاعاً لا في اللغة ولا في كلام من يدري ما يقول . نعم هذا سؤال به ، ودعاؤه ليس هو استشفاعاً به . ولكن هؤلاء لما غيروا اللغة ـ كما غيروا الشريعة ـ وسموا هذا استشفاعاً أي سؤالاً بالشافع صاروا يقولون : « استشفع به فيشفعك » أي يجيب سؤالك به ، وهذا مما يبين أن هذه الحكاية وضعها جاهل بالشرع واللغة ، وأين لفظها من لفظ مالك .

نعم : قد يكون أصلها صحيحاً ، ويكون مالك قد نهى عن رفع الصوت في مسجد الرسول اتباعاً للسنة ، كما كان عمر ينهي عن رفع الصوت في مسجده ، ويكون مالك أمر بما أمر الله به من تعزيزه وتوقيره ونحو ذلك مما يليق بمالك أن يأمر به . ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ ، وعادتهم في الكلام وإلاّ حرف الكلم عن مواضعه ، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قوم وعادتهم في الألفاظ ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده أهل عادته واصطلاحه ، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك .

وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامة وغيرهم ، وآخرون يعتمدون وضع ألفاظ الأنبياء وأتباعهم على معاني أُخر مخالفة لمعانيهم ، ثم ينطقون بتلك الألفاظ مريدين بها ما يعنونه هم ، ويقولون : إنا موافقون للأنبياء ! وهذا موجود في كلام كثير من الملاحدة المتفلسفة والإسماعيلية ومن ضاهاهم من

ملاحدة المتكلمة والمتصوفة ، مثل من وضع « المحدث » و « المخلوق » و « المصنوع » على ما هو معلول وإن كان قديماً أزلياً ، ويسمي بذلك « الحدوث الذاتي » ثم يقول : نحن نقول إن العالم محدث وهو مراده . ومعلوم أن لفظ المحدث بهذا الاعتبار ليس لغة أحد من الأمم ، وإنما المحدث عندهم ما كان بعد إن لم يكن .

وكذلك يضعون لفظ « الملائكة » على ما يثبتونه من العقول والنفوس وقوى النفس . . ولفظ « الجن » و « الشياطين » على بعض قوى النفس ، ثم يقولون : نحن نثبت ما أخبرت به الأنبياء وأقر به جمهور الناس من الملائكة والجن والشياطين . ومن عرف مراد الأنبياء ومرادهم علم بالاضطرار أن هذا ليس هو ذاك ، مثل أن يعلم مرادهم بالعقل الأول وأنه مقارن عندهم لرب العالمين أزلاً وأبداً ، وأنه مبدع لكل ما سواه ، أو بتوسطه حصل كل ما سواه . والعقل الفعال عندهم عنه يصدر كل ما تحت فلك القمر ، ويعلم بالاضطرار من دين الأنبياء أنه ليس من الملائكة عندهم من هو رب كل ما سوى الله ، ولا رب كل ما تحت فلك القمر ، ولا من قديم أزلي أبدي لم يزل ولا يزال . ويعلم أن الحديث الذي يروى « أول ما خلق الله العقل » حديث باطل عن النبي ﷺ مع أنه لو كان حقاً لكان حجة عليهم فإن لفظه « أول ما خلق الله العقل » بنصب الأول على الظرفية « فقال له : أقبل ، فأقبل . ثم قال : أدبر ، فأدبر . فقال : وعزتي ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك العقاب » وروي « لما خلق الله العقل » فالحديث لو كان ثابتاً كان معناه أنه خاطب العقل في أول أوقات خلقه ، وأنه خلق قبله غيره ، وأنه تحصل به هذه الأمور الأربعة لا كل المصنوعات . و « العقل » في لغة المسلمين مصدرُ عقل يعقل عقلاً ، يراد به القوة التي بها يُعقل . وعلوم وأعمال تحصل بذلك لا يراد بها قط في اللغة جوهر قائم بنفسه ، فلا يمكن أن يراد هذا المعنى بلفظ العقل . مع أنا قد بينا في مواضع أخر فساد ما ذكروه من جهة العقل الصريح ، وأن ما ذكروه من المجردات والمفارقات ينتهي أمرهم فيه إلى إثبات النفس التي تفارق البدن بالموت ، وإلى إثبات ما تجرّده النفس من المعقولات القائمة بها، فهذا منتهى ما يثبتونه من الحق في هذا الباب . والمقصود هنا أن كثيراً من كلام الله ورسوله يتكلم به من يسلك مسلكهم ، ويريد مرادهم لا مراد الله ورسوله ، كما يوجد في كلام صاحب الكتب

المضنون بها وغيره مثل ما ذكره في « اللوح المحفوظ » حيث جعله النفس الفلكية ، ولفظ «القلم » حيث جعله العقل الأول ، ولفظ « الملكوت » و « الجبروت » و « الملك » حيث جعل ذلك عبارة عن النفس والعقل ، ولفظ « الشفاعة » حيث جعل ذلك فيضاً يفيض من الشفيع على المستشفع وإن كان الشفيع قد لا يدري ، وسلك في هذه الأمور ونحوها مسالك ابن سينا كما قد بسط في موضع آخر .

والمقصود هنا ذكر من يقع ذلك منه من غير تدبر منه للغة الرسول ﷺ كلفظ القديم ، فإنه في لغة الرسول التي جاء بها القرآن خلاف الحديث ، وإن كان مسبوقاً بغيره ، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى عادَ كالعُرجُونَ القَديم ﴾[1] وقال تعالى عن إخوة يوسف : ﴿ تالله إنَّكَ لَفي ضَلالِكَ القَديم ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ أفَرَأيتُم ما كنتُم تَعبُدُون ، أنتم وآباؤُكُم الأقدَمُون ﴾[3] . وهو عند أهل الكلام عبارة عما لم يزل أو عما لم يسبقه وجود غيره إن لم يكن مسبوقاً بعدم نفسه ، ويجعلونه ـ إذا أريد به هذا ـ من باب المجاز ، ولفظ « الحديث » في لغة القرآن مقابل لفظ « القديم » في القرآن . وكذلك لفظ « الكلمة » في لغة القرآن والحديث وسائر لغة العرب إنما يراد به الجملة التامة ، كقوله ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وقوله : « إن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخرُجُ من أفواهِهِم إنْ يَقُولُونَ إلا كَذِباً ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهْلَ الكتابِ تَعالَوا إلى كَلِمَةٍ سَواء بَيْنَنا وَبَيْنَكُم ﴾[5] الآية وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُوا السُّفلى ، وَكَلِمَةُ هِيَ العُليا ﴾[6] وأمثال ذلك . ولا يوجد لفظ الكلام في لغة العرب إلا بهذا المعنى . والنحاة اصطلحوا على أن يسموا الاسم وحده والفعل والحرف كلمة ، ثم يقول بعضهم : وقد يراد بالكلمة الكلام . فيظن من اعتاد هذا أن

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : (٣٩) .

(٢) سورة يوسف ، الآية : (٩٥) .

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان : (٧٥ و ٧٦) .

(٤) سورة الكهف ، الآية : (٥) .

(٥) سورة المائدة ، الآية : (٦٤) .

(٦) سورة التوبة ، الآية : (٤٠) .

هذا هو لغة العرب . وكذلك لفظ « ذوي الأرحام » في الكتاب والسنة يراد به الأقارب من جهة الأبوين فيدخل فيهم العصبة وذوي الفروض، وإن شمل ذلك من لا يرث بفرض ولا تعصيب ، ثم صار ذلك في اصطلاح الفقهاء اسماً لهؤلاء دون غيرهم ، فيظن من لا يعرف إلا ذلك أن هذا هو المراد بهذا اللفظ في كلام الله ورسوله وكلام الصحابة . ونظائر هذا كثيرة .

ولفظ « التوسل » و « الاستشفاع » ونحوهما دخل فيها من تغيير لغة الرسول وأصحابه ما أوجب غلط من غلط عليهم في دينهم ولغتهم . والعلم يحتاج إلى نقل مصدق ونظر محقق والمنقول على السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظ ومعرفة دلالته ، كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله . فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية .

ونصوص الكتاب والسنة متظاهرة بأن الله أمرنا أن نصلي على النبي ونسلم عليه في كل مكان . فهذا مما اتفق عليه المسلمون . وكذلك رغبنا وحضنا في الحديث الصحيح على أن تسأل الله له الوسيلة والفضيلة وأن يبعثه مقاماً محموداً الذي وعده . فهذه الوسيلة التي شرع لنا أن نسألها الله تعالى ـ كما شرع لنا أن نصلي عليه ونسلم عليه ـ هي حق له ، كما أن الصلاة عليه والسلام حق له ﷺ . والوسيلة التي أمرنا الله أن نبتغيها إليه هي التقرب إلى الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله . وهذه الوسيلة لا طريق لنا إليها إلا باتباع النبي ﷺ بالإيمان به وطاعته . وهذا التوسل به فرض على كل أحد ، وأما التوسل بدعائه وشفاعته ـ كما يسأله الناس يوم القيامة أن يشفع لهم ، وكما كان الصحابة يتوسلون بشفاعته في الاستسقاء وغيره ، مثل توسل الأعمى بدعائه حتى رد الله عليه بصره بدعائه وشفاعته ـ فهذا نوع ثالث هو من باب قبول الله دعاءه وشفاعته لكرامته عليه ، فمن شفع له الرسول ﷺ ودعا له فهو بخلاف من لم يَدْعُ ولم يشفع به . ولكن بعض الناس ظن أن توسل الصحابة به كان بمعنى أنهم يقسمون به ويسألون به ، فظن هذا مشروعاً مطلقاً لكل أحد في حياته ومماته ، وظنوا أن هذا مشروعاً في حق الأنبياء والملائكة بل وفي الصالحين وفيمن يظن فيهم الصلاح وإن لم يكن صالحاً في نفس الأمر . وليس في الأحاديث المرفوعة في ذلك حديث في شيء من دواوين المسلمين التي يعتمد عليها في الأحاديث ـ لا في الصحيحين ولا كتب السنن ولا المسانيد المعتمدة كمسند الإمام

أحمد وغيره ـ وإنما يوجد في الكتب التي عرف أن فيها كثيراً من الأحاديث الموضوعة المكذوبة التي يختلقها الكذابون بخلاف من قد يغلط في الحديث ولا يتعمد الكذب ، فإن هؤلاء توجد الرواية عنهم في السنن ومسند الإمام أحمد ونحوه ، بخلاف من يتعمد الكذب فإن أحمد لم يرو في مسنده عن أحد من هؤلاء . ولهذا تنازع الحافظ أبو العلاء الهمداني والشيخ أبو الفرج بن الجوزي : هل في المسند حديث موضوع ؟ فأنكر الحافظ أبو العلاء أن يكون في المسند حديث موضوع ، وأثبت ذلك أبو الفرج وبيَّن أن فيه أحاديث قد علم أنها باطلة . ولا منافاة بين القولين ، فإن الموضوع في اصطلاح أبي الفرج هو الذي قام دليل على أنه باطل وإن كان المحدِّث به لم يتعمد الكذب بل غلط فيه ، ولهذا روى في كتابه في الموضوعات أحاديث كثيرة من هذا النوع ، وقد نازعه طائفة من العلماء في كثير مما ذكره وقالوا إنه ليس مما يقوم دليل على أنه باطل ، بل بينوا ثبوت بعض ذلك ، لكن الغالب على ما ذكره في الموضوعات أنه باطل باتفاق العلماء . وأما الحافظ أبو العلاء وأمثاله فإنما يريدون بالموضوع المختلق المصنوع الذي تعمد صاحبه الكذب ، والكذب كان قليلاً في السلف .

أما الصحابة فلم يعرف ـ ولله الحمد ـ من تعمد الكذب على النبي ﷺ ، كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ، فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفرق ، ولا كان فيهم من قال أنه أتاه الخضر ، فإن خضر موسى مات كما بين هذا في غير هذا الموضع ، والخضر الذي يأتي كثيراً من الناس إنما هو جني تصوره إنسي أو إنسي كذاب ، ولا يجوز أن يكون ملكاً مع قوله أنا الخضر ، فإن الملك لا يكذب وإنما يكذب الجني والإنسي . وأنا أعرف ممن أتاه الخضر وكان جنياً مما يطول ذكره في هذا الموضع . وكان الصحابة أعلم من أن يروج عليهم هذا التلبيس ، وكذلك لم يكن فيهم من حملته الجن إلى مكة وذهبت به إلى عرفات ليقف بها كما فعلت ذلك بكثير من الجهال والعباد وغيرهم ، ولا كان فيهم من تسرق الجن أموال الناس وطعامهم وتأتيه به فيظن أن هذا من باب الكرامات كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع .

وأما التابعون فلم يعرف تعمد الكذب في التابعين من أهل مكة والمدينة والشام والبصرة بخلاف الشيعة ، فإن الكذب معروف فيهم ، وقد عرف الكذب بعد هؤلاء

في طوائف . وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس ، بل في الصحابة من قد يغلط أحياناً وفيمن بعدهم ، ولهذا كان فيما صنف أحاديث يعلم أنها غلط وإن كان جمهور متون الصحيحين مما يعلم أنه حق . فالحافظ أبو العلاء يعلم أنها غلط ، والإمام أحمد نفسه قد بين ذلك وبين أنه رواها لتعرف ، بخلاف ما تعمد صاحبه الكذب . ولهذا نزه أحمد مسنده عن أحاديث جماعة يروي عنهم أهل السنن كأبي داود والترمذي مثل مشيخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده ، وإن كان أبو داود يروي في سننه منها ، فشرط أحمد في مسنده أجودُ من شرط أبي داود في سننه .

والمقصود أن هذه الأحاديث التي تروى في ذلك من جنس أمثالها من الأحاديث الغريبة المنكرة بل الموضوعة التي يرويها من يجمع في الفضائل والمناقب الغث السمين ، كما يوجد مثل ذلك فيما يصنف في فضائل الأوقات وفضائل العبادات وفضائل الأنبياء والصحابة وفضائل البقاع ونحو ذلك ، فإن الأبواب فيها أحاديث صحيحة وأحاديث حسنة وأحاديث ضعيفة وأحاديث كذب موضوعة . ولا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة ، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوَّزوا أن يروى في فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذا لم يعلم أنه كذب . وذلك أن العمل إذا علم أنه مشروع بدليل شرعي وروى في فضله حديث لا يعلم أنه كذب جاز أن يكون الثواب حقاً ، ولم يقل أحد من الأئمة إنه يجوز أن يجعل الشيء واجباً أو مستحباً بحديث ضعيف ، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع .

وهذا كما أنه لا يجوز أن يحرِّم شيء إلا بدليل شرعي ، لكن إذا علم تحريمه وروي حديث في وعيد الفاعل له ولم يعلم أنه كذب جاز أن يرويه ، ويجوز أن يروي في الترغيب والترهيب ما لم يعلم أنه كذب ، لكن فيما علم أن الله رغَّب فيه أو رهَّب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله .

وهذا كالإسرائيليات يجوز أن يروى منها ما لم يعلم أنه كذب للترغيب والترهيب فيما علم أن الله أمر به في شرعنا ونهى عنه في شرعنا . فأما أن يثبت شرعاً لنا بمجرد الإسرائيليات التي لم تثبت فهذا لا يقوله عالم ، ولا كان أحمد بن حنبل ولا أمثاله من الأئمة يعتمدون على مثل هذه الأحاديث في الشريعة ، ومن نقل عن أحمد

أنه كان يحتج بالحديث الضعيف الذي ليس بصحيح ولا حسن فقد غلط عليه ، ولكن كان في عرف أحمد بن حنبل ومن قبله من العلماء أن الحديث ينقسم إلى نوعين : صحيح ، وضعيف . والضعيف عندهم ينقسم إلى ضعيف متروك لا يحتج به ، وإلى ضعيف حسن ، كما أن ضعف الإنسان بالمرض ينقسم إلى مرض مخوف يمنع التبرع من رأس المال وإلى ضعف خفيف لا يمنع منه ذلك .

وأول من عرف أنه قسم الحديث ثلاثة أقسام ـ صحيح ، وحسن ، وضعيف ـ هو أبو عيسى الترمذي في جامعه[1] . والحسن عنده ما تعددت طرقه ولم يكن في رواته متهم وليس بشاذ . فهذا الحديث وأمثاله يسميه أحمد ضعيفا ويحتج به ، ولهذا مثل أحمد الحديث الضعيف الذي يحتج به بحديث عمرو بن شعيب وحديث إبراهيم الهجري ونحوهما . وهذا مبسوط في موضعه .

والأحاديث التي تروى في هذا الباب ـ وهو السؤال بنفس المخلوقين ـ هي من الأحاديث الضعيفة الواهية بل الموضوعة ، ولا يوجد في أئمة الإسلام من احتج بها ولا اعتمد عليها ، مثل الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة[2] عن أبيه عن جده أن أبا بكر الصديق أتى النبي ﷺ فقال : إني أتعلم القرآن ويتفلت مني . فقال له رسوله الله ﷺ : « **قل : اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وبإبراهيم خليلك ، وبموسى نجيك ، وعيسى روحك وكلمتك ، وبتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، وزبور داود ، وفرقان محمد ، وبكل وحي أوحيته وقضاء قضيته** » وذكر تمام الحديث . وهذا الحديث ذكره رزين بن معاوية العبدري في جامعه ، ونقله ابن الأثير في جامع الأصول ولم يَعزه لا هذا ولا هذا إلى كتاب من كتب المسلمين ، لكنه قد رواه من صنف في عمل يوم وليلة كابن السني وأبي نعيم ، وفي مثل هذه الكتب أحاديث كثيرة موضوعة لا يجوز الاعتماد عليها في الشريعة باتفاق العلماء ، وقد رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب فضائل الأعمال ، وفي هذا الكتاب أحاديث كثيرة كذب موضوعة ، ورواه أبو موسى المديني من حديث زيد بن الحباب عن عبد الملك بن هارون بن عنترة وقال : هذا الحديث حسن مع أنه ليس بالمتصل ،

---

(١) أي الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي .

(٢) قال ابن حيان : يضع الحديث . وقال الذهبي : اتهم بحديث من صام يوماً من البيض عدل له عشرة آلاف سنة .

قال أبو موسى : ورواه محرز بن هشام عن عبد الملك عن أبيه عن جده عن الصديق رضي الله عنه ، وعبد الملك ليس بذاك القوي . وكان بالري ، وأبوه وجده ثقتان . قلت : عبد الملك بن هارون بن عنترة من المعروفين بالكذب ، قال يحيى بن معين : كذاب، وقال السعدي : دجال كذاب . وقال أبو حاتم بن حبان : يضع الحديث . وقال النسائي : متروك . وقال البخاري : منكر الحديث . وقال أحمد بن حنبل : ضعيف . وقال ابن عدي : له أحاديث لا يتابعه عليها أحد . وقال الدارقطني : هو وأبوه ضعيفان . وقال الحاكم في كتاب المدخل : عبد الملك بن هارون بن عنترة الشيباني روى عن أبيه أحاديث موضوعة . وأخرجه أبو الفرج بن الجوزي في كتاب الموضوعات . وقول الحافظ أبي موسى : « هو منقطع » يريد أنه لو كان رجاله ثقات فإن إسناده منقطع .

وقد روى عبد الملك ـ هذا ـ الحديث الآخر المناسب لهذا في استفتاح أهل الكتاب به كما سيأتي ذكره ، فيه عامة ما نقله المفسرون وأهل السير وما دل عليه القرآن ، وهذا يدل على ما قاله العلماء فيه من أنه متروك إما لتعمده الكذب وإما لسوء حفظه وتبين أنه لا حجة لا في هذا ولا في ذاك .

ومثل ذلك الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وموقوفاً عليه إنه « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي ، قال : وكيف عرفت محمداً [ولم أخلقه][1] ؟ قال : لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، قال : صدقت يا آدم ، ولولا محمد ما خلقتك » . وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن مسلم الفهري عن إسماعيل بن سلمة عنه . وقال الحاكم : وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن في هذا الكتاب . وقال الحاكم : هو صحيح[2] . ورواه الشيخ أبو بكر الآجري في الشريعة موقوفاً على عمر من حديث عبد الله بن إسماعيل بن أبي مريم عن عبد الرحمن بن

---

(١) ساقطة من المطبوع والتتمة من المستدرك .

(٢) وقال الذهبي : بل موضوع .

زيد بن أسلم موقوفاً ، ورواه الآجري أيضاً من طريق آخر من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه موقوفاً عليه ، وقال : حدثنا هارون بن يوسف التاجر ، حدثنا أبو مروان العثماني ، حدثني أبو عثمان بن خالد عن عبد الرحمن أبي الزناد عن أبيه أنه قال : « من الكلمات التي تاب الله بها على آدم : قال : اللهم إني أسألك بحق محمد عليك . قال الله تعالى : وما يدريك ما محمد ؟ قال : يا رب رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على عرشك : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك » .

قلت : ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه ، فإنه نفسه قد قال في كتاب المدخل إلى معرفة الصحيح من السقيم : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه ، قلت : وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيراً ، ضعفه أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني وغيرهم ، وقال أبو حاتم بن حبان : كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم ، حتى كثر ذلك من روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك . وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث وقالوا : إن الحاكم يصحح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث ، كما صحح حديث زريب بن ثرملة[1] الذي فيه ذكر وصي المسيح ، وهو كذب باتفاق أهل المعرفة كما بين البيهقي وابن الجوزي وغيرهما . وكذلك أحاديث كثيرة في مستدركه يصححها وهي عند أئمة أهل العلم بالحديث موضوعة . ومنها ما يكون موقوفاً يرفعه . ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم وإن كان غالب ما يصححه فهو صحيح ، لكن

---

(١) وفي الإصابة : زريب بن ثرملا ، روى الباوردي من طريق عبد الله بن معروف عن أبي عبد الرحمن الأنصاري عن محمد بن حسين بن علي أن سعد بن وقاص لما فتح حلوان مرَّ رجل من الأنصار يقال له : جعونة بن نضلة بشعب ، فحضرت الصلاة ، فتوضأ ثم أذن ، فأجابه صوت ، فنظر فلم يرَ شيئاً ، فأشرف عليه رجل من كهف شديد بياض الرأس واللحية ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا زريب بن ثرملا من حواري عيسى ابن مريم ، وقد أردت الوصول إلى محمد رسول الله ﷺ فحالت بيني وبينه فارس ، فأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، فانطلق جعونة فأخبر سعداً فكتب سعد إلى عمر ، فكتب عمر : أطلب الرجل فابعث به إلي ، فتبعوا الشعاب والأودية فلم يروا له أثراً .

هو في المصححين بمنزلة الثقة الذي يكثر غلطه وإن كان الصواب أغلب عليه . وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه ؛ بخلاف أبي حاتم بن حبان البستي فإن تصحيحه فوق تصحيح الحاكم وأجل قدراً ، وكذلك تصحيح الترمذي والدارقطني وابن خزيمة وابن منده وأمثالهم فيمن يصحح الحديث ، فإن هؤلاء وإن كان في بعض ما ينقلونه نزاع فهم أتقن في هذا الباب من الحاكم . ولا يبلغ تصحيح الواحد من هؤلاء مبلغ تصحيح مسلم . ولا يبلغ تصحيح مسلم مبلغ تصحيح البخاري ، بل كتاب البخاري أجل ما صنف في هذا الباب . والبخاري من أعرف خلق الله بالحديث وعلله مع فقهه فيه ، وقد ذكر الترمذي أنه لم ير أحداً أعلم بالعلل منه ، ولهذا كان من عادة البخاري إذا روى حديثاً اختلف في إسناده أو في بعض ألفاظه أن يذكر الاختلاف في ذلك لئلا يغتر بذكره له بأنه ، إنما ذكره مقروناً بالاختلاف فيه . ولهذا كان جمهور ما أنكر على البخاري مما صححه يكون قوله فيه راجحاً على قول من نازعه ، بخلاف مسلم بن الحجاج فإنه نوزع في عدة أحاديث مما خرجها ، وكان الصواب فيها مع من نازعه ، كما روى في حديث الكسوف أن النبي ﷺ صلى بثلاث ركوعات وبأربع ركوعات كما روى أنه صلى بركوعين ، والصواب أنه لم يصل إلا بركوعين ، وأنه لم يصل الكسوف إلا مرة واحدة يوم مات إبراهيم ، وقد بين ذلك الشافعي ، وهو قول البخاري وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه ، والأحاديث التي فيها الثلاث والأربع فيها أنه صلاها يوم مات إبراهيم ، ومعلوم أنه لم يمت في يومي كسوف ولا كان له إبراهيمان ، ومن نقل أنه مات عاشر الشهر فقد كذب . وكذلك روى مسلم : « خلق الله التربة يوم السبت » ونازعه فيه من هو أعلم منه كيحيى بن معين والبخاري وغيرهما ، فبينوا أن هذا غلط ليس من كلام النبي ﷺ . والحجة مع هؤلاء، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأن آخر ما خلقه هو آدم ، وكان خلقه يوم الجمعة . وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أنه خلق ذلك في الأيام السبعة . وقد روى إسناد أصح من هذا ، أن أول الخلق كان يوم الأحد . وكذلك روى أن أبا سفيان لما أسلم طلب من النبي ﷺ أن يتزوج بأم حبيبة وأن يتخذ معاوية كاتباً ، وغلطه في ذلك طائفة من الحفاظ .

ولكن جمهور متون الصحيحين متفق عليها بين أئمة الحديث ، تلقوها بالقبول

وأجمعوا عليها ، وهم يعلمون علماً قطعياً أن النبي ﷺ قالها . وبسط الكلام في هذا له موضع آخر .

وهذا الحديث المذكور في آدم يذكره طائفة من المصنفين بغير إسناد ، وما هو من جنسه مع زيادات أخر ، كما ذكر القاضي عياض قال : وحكى أبو محمد المكي وأبو الليث السمرقندي وغيرهما : أن آدم عند معصيته قال : اللهمَّ بحق محمد اغفر لي خطيئتي ـ قال : ويروى : تقبل توبتي ـ فقال الله له : من أين عرفت محمداً ؟ قال : رأيت في كل موضع من الجنة مكتوباً : لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله ، ـ قال : ويروى : محمد عبدي ورسولي ـ فعلمت أنه أكرم خلقك عليك . فتاب عليه وغفر له . ومثل هذا لا يجوز أن تبنى عليه الشريعة ولا يحتج به في الدين باتفاق المسلمين ، فإن هذا من جنس الإسرائيليات ونحوها التي لا يعلم صحتها إلاَّ بنقل ثابت عن النبي ﷺ ، وهذه لو نقلها مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما ممن ينقل أخبار المبتدأ وقصص المتقدمين عن أهل الكتاب لم يجز أن يحتج بها في دين المسلمين باتفاق المسلمين ، فكيف إذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين ، بل إنما ينقلها عمن هو عند المسلمين مجروح ضعيف لا يحتج بحديثه ، واضطرب عليه فيها اضطراباً يعرف به أنه لم يحفظ ذلك ، ولا ينقل ذلك ولا ما يشبه أحد من ثقات علماء المسلمين الذين يعتمد على نقلهم ، وإنما هي من جنس ما ينقله إسحاق بن بشر وأمثاله في كتب المبتدأ ، وهذه لو كانت ثابتة عن الأنبياء لكانت شرعاً لهم ، وحينئذٍ فكان الاحتجاج بها مبنياً على أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا ؟ والنزاع في ذلك مشهور . لكن الذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أنه شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وهذا إنما هو فيما ثبت أنه شرع لمن قبلنا من نقل ثابت عن نبينا ﷺ أو بما تواتر عنهم لا بما يروى على هذا الوجه ، فإن هذا لا يجوز أن يَحتج به في شرع المسلمين أحد من المسلمين .

ومن هذا الباب حديث ذكره موسى بن عبد الرحمن الصنعاني صاحب التفسير بإسناده عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال : « من سره أن يوعيه الله حفظ القرآن وحفظ أصناف العلم فليكتب هذا الدعاء في إناء نظيف أو في صحف قوارير بعسل وزعفران وماء مطر وليشربه على الريق وليصم ثلاثة أيام ، وليكن إفطاره عليه ويدعو به في أدبار صلاته : اللهمَّ إني أسألك بأنك مسؤول لم يسأل مثلك ولا يسأل ، وأسألك بحق

محمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى روحك وكلمتك ووجيهك » وذكر تمام الدعاء . وموسى بن عبد الرحمن هذا من الكذابين ، قال أبو أحمد بن عدي فيه : منكر الحديث . وقال أبو حاتم ابن حبان : دجال يضع الحديث ، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً في التفسير جمعه من كلام الكلبي ومقاتل ، ويروى نحو هذا ـ دون الصوم ـ عن ابن مسعود من طريق موسى بن إبراهيم المروزي حدثنا وكيع عن عبيدة عن شقيق عن ابن مسعود . وموسى بن إبراهيم هذا قال فيه يحيى بن معين : كذاب ، وقال الدارقطني : متروك ، وقال ابن حبان : كان مغفلاً يلقن فيتلقن فاستحق الترك . ويروى هذا عن عمر بن عبد العزيز عن مجاهد بن جبير عن ابن مسعود بطريق أضعف من الأول . ورواه أبو الشيخ الأصبهاني من حديث أحمد بن إسحاق الجوهري : حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا زهير بن العلاء العتبي ، حدثنا يوسف بن يزيد عن الزهري ورفع الحديث قال : « من سره أن يحفظ فليصم سبعة أيام وليكن إفطاره في آخر الأيام السبعة على هؤلاء الكلمات » . قلت : وهذه أسانيد مظلمة لا يثبت بها شيء . وقد رواه أبو موسى المديني في أماليه وأبو عبد الله المقدسي على عادة أمثالهم في رواية ما يروى في الباب سواء كان صحيحاً ، أو ضعيفاً ، كما اعتاده أكثر المتأخرين من المحدثين أنهم يروون ما روى به الفضائل ، ويجعلون العهدة في ذلك على الناقل كما هي عادة المصنفين في فضائل الأوقات والأمكنة والأشخاص والعبادات والعادات . كما يرويه أبو الشيخ الأصبهاني في فضائل الأعمال وغيره حيث يجمع أحاديث كثيرة لكثرة روايته ، وفيها أحاديث كثيرة قوية صحيحة وحسنة ، وأحاديث كثيرة ضعيفة موضوعة وواهية ، وكذلك ما يرويه خيثمة بن سليمان في فضائل الصحابة ، وما يرويه أبو نعيم الأصبهاني في فضائل الخلفاء في كتاب مفرد وفي أول حلية الأولياء ، وما يرويه أبو الليث السمرقندي وعبد العزيز الكناني وأبو علي بن البناء وأمثالهم من الشيوخ ، وما يرويه أبو بكر الخطيب وأبو الفضل بن ناصر وأبو موسى المديني وأبو القاسم بن عساكر والحافظ عبد الغني وأمثالهم ممن لهم معرفة بالحديث ، فإنهم كثيراً ما يروون في تصانيفهم ما روي مطلقاً على عادتهم الجارية ليعرف ما روي في ذلك الباب لا ليحتج بكل ما روي وقد يتكلم أحدهم على الحديث ويقول : غريب ، ومنكر ، وضعيف . وقد لا يتكلم .

وهذا بخلاف أئمة الحديث الذين يحتجون به ويبنون عليه دينهم مثل مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وعلي بن المديني ، والبخاري ، وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، وأبي داود ، ومحمد بن نصر المروزي ، وابن خزيمة ، وابن المنذر ، وداود بن علي ، ومحمد بن جرير الطبري ، وغير هؤلاء ، فإن هؤلاء الذي يبنون الأحكام على الأحاديث يحتاجون أن يجتهدوا في معرفة صحيحها وضعيفها وتمييز رجالها .

وكذلك الذين تكلموا في الحديث والرجال ليميزوا بين هذا وهذا لأجل معرفة الحديث كما يفعل أبو أحمد بن عدي ، وأبو حاتم البستي ، وأبو الحسن الدارقطني ، وأبو بكر الإسماعيلي ، وكما قد يفعل ذلك أبو بكر البيهقي ، وأبو إسماعيل الأنصاري ، وأبو القاسم الزنجاني ، وأبو عمر بن عبد البر ، وأبو محمد بن حزم ، وأمثال هؤلاء ، فإن بسط هذه الأمور له موضع آخر . ولم نذكر من لا يروي بإسناد مثل كتاب (وسيلة المتعمدين) لعمر الملا الموصلي ، وكتاب (الفردوس) لشهريار الديلمي ، وأمثال ذلك ، فإن هؤلاء دون هؤلاء الطبقات ، وفيما يذكرونه من الأكاذيب أمر كبير .

والمقصود هنا أنه ليس في هذا الباب حديث واحد مرفوع إلى النبي ﷺ يعتمد عليه في مسألة شرعية باتفاق أهل المعرفة بحديثه ، بل المروي في ذلك إنما يعرف أهل المعرفة بالحديث أنه من الموضوعات ، إما تعمداً من واضعه ، وإما غلطاً منه .
وفي الباب آثار عن السلف أكثرها ضعيفة : فمنها حديث الأربعة الذين اجتمعوا عند الكعبة وسألوا ، وهم عبد الله ومصعب ابنا الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان ، ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب مجابي الدعاء ورواه من طريق إسماعيل بن أبان الغنوي عن سفيان الثوري عن طارق بن عبد العزيز عن الشعبي أنه قال : لقد رأيت عجباً ، كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليماني وليسأل الله حاجته فإنه يعطى من سبعة . ثم قالوا : قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولود في الإسلام بعد الهجرة . فقام فأخذ بالركن اليماني

ثم قال : اللهمَّ إنك عظيم ترجى لكل عظيم ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ألا تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز ويسلِّم علي بالخلافة، ثم جاء فجلس . ثم قام مصعب فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهمَّ إنك رب كل شيء وإليك يصير كل شيء ، أسألك بقدرتك على كل شيء ألا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق ، وتزوجني بسُكينة بنت الحسين . ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهمَّ رب السموات السبع ورب الأرض ذات النبت بعد القفر أسألك بما سألك به عبادك المطيعون لأمرك ، وأسألك بحقك على خلقك وبحق الطائفين حول عرشك . . . إلى آخره .

قلت : وإسماعيل بن أبان الذي روى هذا عن سفيان الثوري كذاب ، قال أحمد بن حنبل : كتبت عنه ، ثم حدث بأحاديث موضوعة فتركناه . وقال يحيى بن معين : وضع حديثاً على السابع من ولد العباس يلبس الخضرة (يعني المأمون) . وقال البخاري ومسلم وأبو زرعة والدارقطني : متروك . وقال الجوزجاني : ظهر منه على الكذب . وقال أبو حاتم : كذاب . وقال ابن حبان : يضع على الثقات . وطارق بن عبد العزيز الذي ذكر أن الثوري روى عنه لا يعرف من هو . فإن طارق بن عبد العزيز المعروف الذي روى عنه ابن عجلان ليس من هذه الطبقة .

وقد خولف فيها فرواها أبو نعيم عن الطبراني : حدثنا أحمد بن زيد بن الجريش ، حدثنا أبو حاتم السجستاني ، حدثنا الأصمعي قال : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : اجتمع في الحجر مصعب وعروة وعبد الله أبناء الزبير وعبد الله بن عمر فقالوا : تمنَّوا . فقال عبد الله بن الزبير : أما أنا فأتمنى الخلافة ، وقال عروة : أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم ، وقال مصعب : أما أنا فأتمنى إمرة العراق ، والجمع بين عائشة بنت طلحة وسُكينة بنت الحسين ، وقال عبد الله بن عمر : أما أنا فأتمنى المغفرة . قال : فنال كلهم ما تمنوا ، ولعل ابن عمر قد غفر له . قلت : وهذا إسناد خير من ذاك الإسناد باتفاق أهل العلم ، وليس فيه سؤال بالمخلوقات .

وفي الباب حكايات عن بعض الناس أنه رأى مناماً قيل له فيه : أدع بكذا وكذا ، ومثل هذا لا يجوز أن يكون دليلاً باتفاق العلماء ، وقد ذكر بعض هذه الحكايات من جمع في الأدعية ، ورُوي في ذلك أثر عن بعض السلف مثل ما رواه

ابن أبي الدنيا في كتاب (مجابي الدعاء) قال : حدثنا أبو هاشم ، سمعت كثير بن محمد بن كثير بن رفاعة يقول : جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد بن أبجر فجس بطنه ، فقال : بك داء لا يبرأ ، قال : ما هو ؟ قال : الدُّبَيْلَة[1] . قال : فتحول الرجل فقال : الله الله ، الله ربي لا أشرك به شيئاً ، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ تسليماً ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك وربي يرحمني مما بي . قال : فجس بطنه فقال : قد برئت ما بك علة .

قلت : فهذا الدعاء ونحوه قد روى أنه دعا به السلف ، ونقل عن أحمد بن حنبل في منسك المروذي التوسل بالنبي ﷺ في الدعاء ، ونهى عنه آخرون . فإن كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به وبمحبته وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين ، وإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع ، وما تنازعوا فيه يرد إلى الله والرسول . وليس مجرد كون الدعاء حصل به المقصود يدل على أنه سائغ في الشريعة ، فإن كثيراً من الناس يدعون من دون الله من الكواكب والمخلوقين ويحصل ما يحصل من غرضه ، وبعض الناس يقصد الدعاء عند الأوثان والكنائس وغير ذلك ويدعو التماثيل التي في الكنائس ويحصل ما يحصل من غرضه ، وبعض الناس يدعو بأدعية محرَّمة باتفاق المسلمين ويحصل ما يحصل من غرضه ، فحصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته وإن كان الغرض مباحاً ، فإن ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته ، والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلا فجميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد ، ولكن لما كانت مفاسدها راجحة على مصالحها نهى الله ورسوله عنها ، كما أن كثيراً من الأمور كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرة ، لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع . فهذا أصل يجب اعتباره ، ولا يجوز أن يكون الشيء واجباً أو مستحباً إلا بدليل شرعي يقتضي إيجابه أو استحبابه . والعبادات لا تكون إلاّ واجبة أو مستحبة ، فما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة . والدعاء لله تعالى عبادة إن كان المطلوب به أمراً مباحاً .

---

(١) هي الخراج أو الدمل الكبير الذي يظهر في الجوف وتقتل صاحبها .

وفي الجملة فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به ، بخلاف دعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والملائكة والصالحين والاستغاثة بهم والشكوى إليهم ، فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين .

وحديث الأعمى الذي رواه الترمذي والنسائي هو من القسم الثاني من التوسل بدعائه ، فإن الأعمى قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره . فقال له : « إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك » فقال : بل ادْعُه ، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول : « اللهم إني أسألك بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد يا رسول الله ، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضها ، اللهمَّ فشفعه فيَّ » فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ، ودعا له النبي ﷺ ، ولهذا قال : « **وشفعه فيَّ** » ، فسأل الله أن يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه .

وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب ، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات ، فإنه ﷺ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره .

وهذا الحديث ـ حديث الأعمى ـ قد رواه المصنفون في دلائل النبوَّة كالبيهقي وغيره : رواه البيهقي من حديث عثمان بن عمر عن شعبة عن أبي جعفر الخطمي ، قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادعُ الله أن يعافيني ، فقال له : « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك ، وإن شئت دعوت » قال : فادْعُهْ ، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فيقضيها ، اللهمَّ فشفِّعه فيَّ وشفِّعني فيه . قال : فقام وقد أبصر . ومن هذا الطريق رواه الترمذي من حديث عثمان بن عمر ، ومنها رواه النسائي وابن ماجة أيضاً وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب لا يعرف إلاّ من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي . هكذا وقع في الترمذي وسائر العلماء قالوا : هو أبو جعفر الخطمي وهو الصواب . وأيضاً فالترمذي ومن معه لم يستوعبوا لفظه كما استوعبه سائر العلماء بل رووه إلى قوله : « اللهمَّ شفعه فيَّ » قال الترمذي : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا

عثمان ابن عمر ، حدثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال : ادعُ الله أن يعافيني قال : « **إن شئت صبرت فهو خير لك** » قال : فادْعُهْ ، قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقتضي ، اللهمَّ شفعه فيَّ . قال البيهقي : رويناه في كتاب الدعوات بإسناد صحيح عن روح بن عبادة عن شعبة ، قال : ففعل الرجل فبرأ ، قال : وكذلك رواه حماد عن سلمة عن أبي جعفر الخطمي . قلت : ورواه الإمام أحمد في مسنده عن روح بن عبادة كما ذكره البيهقي . قال أحمد : حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة عن أبي جعفر المديني : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ادعُ الله أن يعافيني ، قال : « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك » قال : لا بل ادعُ الله لي ، فأمره أن يتوضأ وأن يصلي ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى الله في حاجتي هذه ، فتقضي لي وتشفّعني فيه وتشفّعه فيَّ » قال : ففعل الرجل فبرىء . ورواه البيهقي أيضاً من حديث شبيب بن سعيد الحَبَطي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني ـ وهو الخطمي ـ عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عثمان بن حنيف قال : سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير يشتكي إليه ذهاب بصره فقال : يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي ، فقال رسول الله ﷺ : « **إئت الميضأة فتوضأ ، ثم صلِّ ركعتين ، ثم قل : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجَّه بك إلى ربي فيجلي عن بصري ، اللهمَّ فشفّعه فيَّ وشفّعني في نفسي** » . قال عثمان بن حنيف : والله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضرٌّ قط .

فرواية شبيب عن روح عن أبي جعفر الخطمي خالفت رواية شعبة وحماد بن سلمة في الإسناد والمتن ، فإن في تلك أنه رواه أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة ، وفي هذه أنه رواه عن أبي أمامة بن سهل ، وفي تلك الرواية أنه قال : فشفعه فيَّ وشفّعني فيه ، وفي هذه وشفعني في نفسي . لكن هذا الإسناد له شاهد آخر من رواية هشام الدستوائي عن أبي جعفر .

ورواه البيهقي من هذه الطريق وفيه قصة قد يحتج بها من توسل به بعد موته ـ إن كانت صحيحة ـ رواه من حديث إسماعيل بن شبيب بن سعيد الحبطي عن شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم عن أبي جعفر جعفر المديني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته ، فلقي الرجل عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف : ائت المضيأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلِّ ركعتين ثم قل : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة ، يا محمد ، إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي . ثم اذكر حاجتك ثم رح حتى أروح معك . قال : فانطلق الرجل فصنع ذلك ثم أتى بعدُ عثمانَ بن عفان فجاء البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : انظر ما كانت لك من حاجة . فذكر حاجته فقضاها له ، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتى كلمتَه فيَّ . فقال عثمان بن حنيف : ما كلمته ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول ، وجاءه ضرير وشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ « أو تصبر ؟ » فقال له : يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق عليّ ، فقال : ائت الميضأ فتوضأ ثم صلِّ ركعتين ثم قل : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه إلى ربي فيجلي لي عن بصري ، اللهمَّ فشفّعه فيَّ وشفّعني في نفسي » قال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا وما طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط . قال البيهقي : ورواه أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه بطوله وساقه من رواية يعقوب بن سفيان عن أحمد بن أبي أمامة بن سهل عن عمه ـ وهو عثمان بن حنيف ـ ولم يذكر إسناد هذه الطرق .

قلت : وقد رواه النسائي في كتاب « عمل اليوم والليلة » من هذه الطريق من حديث معاذ بن هشام عن أبيه عن أبي جعفر عن أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف . ورواه أيضاً من حديث شعبة وحماد بن سلمة كلاهما عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة ، ولم يروه أحد من هؤلاء ـ لا الترمذي ولا النسائي ولا ابن ماجة ـ من تلك الطريق الغريبة التي فيها الزيادة ـ طريق شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم ـ لكن رواه الحاكم في مستدركه من الطريقين فرواه من حديث

عثمان بن عمر : حدثنا شعبة عن أبي جعفر المدني سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان بن حنيف ، أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني فقال : « **إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك ، وإن شئت دعوت** » قال : فادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء :

« اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه، اللهمَّ فشفّعه فيَّ وشفّعني فيه » قال الحاكم على شرطهما ، ثم رواه من طريق شبيب بن سعيد الحَبَطي وعون بن عمارة عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف ، أنه سمع النبي ﷺ وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره وقال : يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق عليَّ ، فقال : « **ائت الميضأ ، فتوضأ ثم صلِّ ركعتين ثم قل :**

اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيجلي لي عن بصري ، اللهمَّ فشفّعه فيَّ وشفّعني في نفسي » قال عثمان : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأن لم يكن به ضر قط . قال الحاكم : على شرط البخاري .

وشبيب هذا صدوق روى له البخاري ، لكنه قد رُوي له عن روح بن الفرج أحاديث مناكير رواها ابن وهب وقد ظن أنه غلط عليه . ولكن قد يقال مثل هذا إذا انفرد عن الثقات الذين هم أحفظ منه ، مثل شعبة وحماد بن سلمة وهشام الدستوائي بزيادة كان ذلك عليه في الحديث ، لا سيما وفي هذه الرواية أنه قال : « فشفعه فيَّ وشفّعني في نفسي » وأولئك قالوا : « فشفع فيَّ وشفّعني فيه » ومعنى قوله : « وشفّعني فيه » أي في دعائه وسؤاله لي ، فيطابق قوه : « وشفّعه فيَّ » .

قال أحمد بن عدي في كتابه المسمى بـ (الكامل في أسماء الرجال) ولم يصنف في فنه مثله : شبيب بن سعيد الحبطي أبو سعيد البصري التميمي حدث عنه ابن وهب بالمناكير ، وحدث عن يونس عن الزهري بنسخة الزهري أحاديث مستقيمة ، وذكر عن علي بن المديني أنه قال : هو بصري ثقة كان من أصحاب يونس ، كان يختلف في تجارة إلى مصر وجاء بكتاب صحيح . قال : وقد كتبها عنه ابنه أحمد بن

شبيب . وروى عن عدي حديثين عن ابن وهب عن شبيب هذا عن روح بن الفرج أحدهما عن ابن عقيل عن سابق بن ناجية عن ابن سلام قال : مرَّ بنا رجل فقالوا : إن هذا قد خدم النبي ﷺ . والثاني عنه عن روح بن الفرج عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة حديث دخول المسجد . قال ابن عدي : كذا قيل في الحديث عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ . قال ابن عدي : ولشبيب بن سعيد نسخة الزهري عنده عن يونس عن الزهري وهو أحاديث مستقيمة . وحدَّث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير . وأن حديثي روح بن الفرج اللذين أمليتهما يرويهما ابن وهب عن شبيب . وكان شبيب بن سعيد إذا روى عنه ابنه أحمد بن شبيب ـ نسخة الزهري : ليس هو شبيب بن سعيد الذي يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التي يرويها عنه ، ولعلَّ شبيباً بمصر في تجارته إليها كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط ويهم ـ وأرجو أن لا يتعمد شبيب هذا الكذب .

قلت : هذان الحديثان اللذان أنكرهما ابن عدي عليه رواهما عن روح بن القاسم ، وكذلك هذا الحديث حديث الأعمى رواه عن روح بن القاسم . وهذا الحديث مما رواه عنه ابن وهب أيضاً كما رواه عنه ابناه ، لكنه لم يتقن لفظه كما أتقنه ابناه ، وهذا يصحح ما ذكره ابن عدي ، فعلم أنه محفوظ عنه . وابن عدي أحال الغلط عليه لا على ابن وهب ، وهذا صحيح إن كان قد غلط ، وإذا كان قد غلط على روح بن القاسم في ذينك الحديثين أمكن أن يكون غلط عليه في هذا الحديث . وروح بن القاسم ثقة مشهور روى له الجماعة فلهذا لم يحيلوا الغلط عليه . والرجل قد يكون حافظاً لما يرويه عن شيخ ، وغير حافظ لما يرويه عن آخر ، مثل إسماعيل بن عياش فيما يرويه عن الحجازيين فإنه يغلط فيه ، بخلاف ما يرويه عن الشاميين . ومثل سفيان بن حسين فيما يرويه عن الزهري . ومثل هذا كثير ، فيحتمل أن يكون هذا يغلط فيما يرويه عن روح بن القاسم ـ إن كان الأمر كما قاله ابن عدي ـ وهذا محل نظر .

وقد روى الطبراني هذا الحديث في المعجم من حديث ابن وهب عن شبيب بن سعيد رواه من حديث أصبغ بن الفرج : حدثنا عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى

عثمان بن عفان في حاجة له فلقي عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال له ابن حنيف :

ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلِّ فيه ركعتين ثم قل : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمدٍ ﷺ نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك عزَّ وجلَّ فيقضي لي حاجتي ، وتذكر حاجتك ، ورح حتى أروح معك ، فانطلق الرجل فصنع ما قاله له .

ثم أتى باب عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له .

ثم قال له : ما ذكرتُ حاجتك حتى كانت هذه الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فائتنا .

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتى كلمتَه فيَّ . فقال له عثمان بن حنيف : والله ما كلمته ، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ : « **أفتصبر ؟** » فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شقَّ علي ، فقال له رسول الله ﷺ : « **ائت الميضأ فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات** » فقال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

قال الطبراني : روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر واسمه عمرو بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة ، قال أبو عبد الله المقدسي : والحديث صحيح .

قلت : والطبراني ذكر تفرده بمبلغ علمه ولم تبلغه رواية روح بن عبادة عن شعبة وذلك إسناد صحيح يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر ، وطريق ابن وهب هذه تؤيد ما ذكره ابن عدي فإنه لم يحرر لفظ الرواية كما حررها ابناه بل ذكر فيهما أن ايعمى دعا بمثل ما ذكره عثمان بن حنيف ، وليس كذلك بل في حديث الأعمى أنه قال : « اللهمَّ فشفِّعه فيَّ وشفعني فيه - أو قال - في نفسي » وهذه لم يذكرها ابن وهب في روايته ، فيشبه أن يكون حديث ابن وهب من حفظه كما قال ابن عدي فلم يتقن الرواية .

وقد روى أبو بكر بن أبي خيثمة في تاريخه حديث حماد بن سلمة فقال :

حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا حماد بن سلمة أنا أبو جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف ، أن رجلاً أعمى أتى النبي ﷺ فقال : إني أصبت في بصري فادع الله لي قال : « **اذهب فتوضأ وصلِّ ركعتين ثم قل : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أستشفع بك على ربي في رد بصري ، اللهمَّ فشفعني في نفسي وشفع نبيي في رد بصري ، وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك** » فردَّ الله عليه بصره .

قال ابن أبي خيثمة : وأبو جعفر هذا ـ الذي حدَّث عنه حماد بن سلمة ـ اسمه عمير بن يزيد وهو أبو جعفر الذي يروي عنه شعبة ، ثم ذكر الحديث من طريق عثمان بن عمر عن شعبة . قلت : وهذه الطريق فيها : « فشفِّعني في نفسي » مثل طريق روح بن القاسم ، وفيها زيادة أخرى وهي قوله : « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك ـ أو قال ـ فعل مثل ذلك » وهذه قد يقال : إنها توافق قول عثمان بن حنيف ، لكن شعبة وروح بن القاسم أحفظ من حماد بن سلمة ، واختلاف الألفاظ يدل على أن مثل هذه الرواية قد تكون بالمعنى ، وقوله : « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك» قد يكون مدرجاً من كلام عثمان لا من كلام النبي ﷺ فإنه لم يقل : « وإن كانت حاجة فعلت مثل ذلك » بل قال : « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك » .

وبالجملة فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم تكن فيها حجة ، وإنما غايتها أن يكون عثمان بن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض ، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع بل ببعضه ، وظن أن هذا مشروع بعد موته ﷺ ، ولفظ الحديث يناقض ذلك ، فإن في الحديث ، أن الأعمى سأل النبي ﷺ أن يدعو له ، وأنه علم الأعمى أن يدعو وأمره في الدعاء أن يقول : « اللهمَّ فشفِّعه فيَّ » وإنما يدعى بهذا الدعاء إذا كان النبي ﷺ داعياً شافعاً له بخلاف من لم يكن كذلك ، فهذا يناسب شفاعته ودعاءه للناس في محياه في الدنيا ويوم القيامة إذا شفع لهم ، وفيه أيضاً أنه قال : «وشفعني فيه » .

وليس المراد أن يشفع للنبي ﷺ في حاجة للنبي ﷺ ـ وإن كنا مأمورين بالصلاة والسلام عليه ، وأمرنا أن نسأل الله له الوسيلة ، ففي صحيح البخاري عن جابر بن

عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال إذا سمع النداء : اللهمَّ رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة » .

وفي مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ ، فإن من صلَّى عليَّ صلاة صلَّى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تبتغي إلاَّ لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة » .

وسؤال الأمة له الوسيلة هو دعاء له ، وهو معنى الشفاعة ، ولهذا كان الجزاء من جنس العمل ، فمن صلَّى عليه ، صلَّى عليه الله ، ومن سأل الله له الوسيلة المتضمنة لشفاعته شفع له ﷺ ، كذلك الأعمى سأل منه الشفاعة فأمره أن يدعو الله بقبول هذه الشفاعة وهو كالشفاعة في الشفاعة . فلهذا قال : اللهمَّ فشفعه فيَّ وشفعني فيه .

وذلك أن قبول دعاء النبي ﷺ في مثل هذا هو من كرامة الرسول على ربه ، ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته ، فهو كشفاعته يوم القيامة في الخلق ، ولهذا أمر طالب الدعاء أن يقول : « فشفعه فيَّ وشفعني فيه » بخلاف قوله : « وشفعني في نفسي » فإن هذا اللفظ لم يروه أحد إلاَّ من هذا الطريق الغريب وقوله : « وشفعني فيه » رواه عن شعبة رجلان جليلان : عثمان بن عمر ، وروح بن عبادة ، وشعبة أجل من روى هذا الحديث ، ومن طريق عثمان بن عمر عن شعبة رواه الثلاثة : الترمذي والنسائي وابن ماجة .

رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر عن شعبة . ورواه ابن ماجة عن أحمد بن سيار عن عثمان بن عمر .

وقد رواه أحمد في (المسند) عن روح بن عبادة عن شعبة ، فكان هؤلاء أحفظ للفظ الحديث . مع أن قوله : « وشفعني في نفسي » إن كان محفوظاً مثل ما ذكرناه ، وهو أنه طلب أن يكون شفيعاً لنفسه مع دعاء النبي ﷺ ولو لم يدع له النبي ﷺ كان سائلاً مجرداً كسائر السائلين .

ولا يسمى مثل هذا شفاعة ، وإنما تكون الشفاعة إذا كان هناك اثنان يطلبان أمراً فيكون أحدهما شفيعاً للآخر ، بخلاف مطالب الواحد الذي لم يشفَّع غيره .

فهذه الزيـادة فيها عـدة علل : انفراد هـذا بها عن من هـو أكبر وأحفظ منـه ، وإعراض أهل السنن عنها ، واضطراب لفظها ، وأن راويها عرف له ـ عن روح هذا ـ أحاديث منكرة . ومثل هذا يقتضي حصول الريب والشك في كونها ثابتة ، فلا حجة فيها ، إذ الاعتبار بما رواه الصحابي لا بما فهمه إذا كان اللفظ الذي رواه لا يدل على ما فهمه بل على خلافه ، ومعلوم أن الواحد بعد موته إذا قـال : اللهمَّ فشفّعه فيَّ وشفّعني فيه ـ مع أن النبي ﷺ لم يدعُ له ـ كان هذا كلاماً باطلاً ، مع أن عثمان بن حنيف لم يأمره أن يسأل النبي ﷺ شيئاً ولا أن يقول فشفّعه فيَّ ، ولم يأمره بـالدعـاء المأثور على وجهه ، وإنما أمره ببعضه ، وليس هناك من النبي ﷺ شفاعة ولا ما يظن أنه شفاعة ، فلو قال بعد موته : « فشفّعه فيَّ » لكان كلاماً لا معنى له ، ولهذا لم يأمر به عثمان . والدعاء المأثور عن النبي ﷺ لم يأمر به ، والذي أمر به ليس مأثوراً عن النبي ﷺ .

ومثـل هذا لا تثبت بـه شريعـة كسائـر ما ينقـل عن آحاد الصحـابة في جنس العبادات أو الإباحات أو الإيجابات أو التحريمات ، إذا لم يوافقه غيره من الصحابة عليـه ، وكان مـا يثبت عن النبي ﷺ يخالفـه لا يوافقـه لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها ، بل غايتها أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد ومما تنازعت فيه الأمة فيجب رده إلى الله والرسول .

ولهذا نظائر كثيرة : مثل ما كان عمر يدخل الماء في عينيه في الوضوء ، ويأخذ لأذنيه ماءً جديد ، وكان أبو هريرة يغسل يديه إلى العضدين في الوضوء ويقول : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وروى عنه أنه كان يمسح عنقه ويقول : هو موضـع الغل .

فإن هذا وإن استحبه طائفة من العلماء اتباعاً لهما فقد خالفهم في ذلك آخرون وقالوا : سائر الصحابة لم يكونوا يتوضئون هكذا ، والوضوء الثابت عنه ﷺ الذي في الصحيحين وغيرهما من غير وجه ليس فيه أخذ ماء جديد للأذنين ولا غسل ما زاد على المرفقين والكعبين ولا مسح العنق ، ولا قال النبي ﷺ : من استطاع أن يطيل غـرته فليفعل . بل هذا من كلام أبي هريرة جاء مدرجاً في بعض الأحاديث ، وإنمـا قال النبي ﷺ : « **إنكم تأتوم بيـوم القيامـة غراً محجلين من آثـار الوضـوء** » ، وكان ﷺ يتوضأ حتى يشرع في العضد والساق ، قال أبو هريرة : من استطاع أن يـطيل غـرته

فليفعل ، وظن من ظن أن غسل العضد من إطالة الغرة، وهذا لا معنى له فإن الغرة في الوجه لا في اليد والرجل، وإنما في اليد والرجل الحجلة . والغرة لا يمكن إطالتها فإن الوجه يغسل كله ، لا يغسل الرأس ولا غرة في الرأس ، والحجلة لا يستحب إطالتها وإطالتها مثلة .

وكذلك ابن عمر كان يتحرى أن يسير مواضع سير النبي ﷺ وينزل مواضع منزله ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ ويصب فضل مائه على شجرة صب عليها ، ونحو ذلك مما استحبه طائفة من العلماء ورأوه مستحباً ، ولم يستحب ذلك جمهور العلماء ، كما لم يستحبه ولم يفعله أكابر الصحابة، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ بن جبل وغيرهم ، لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر . ولو رأوه مستحباً لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعته والاقتداء به .

وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل ، فإذا فعل فعلاً على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة ، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصنا بذلك ، كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة ، وأن يلتمس الحجر الأسود ، وأن يصلي خلف المقام ، وكان يتحرى الصلاة خلف أسطوانة مسجد المدينة ، وقصد الصعود على الصفا والمروة والدعاء والذكر هناك ، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما .

وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده ـ مثل أن ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزله لا قصداً لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه .

فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النزول لم نكن متبعين ، بل هذا من البدع التي كان ينهى عنها عمر بن الخطاب ، كما ثبت بالإسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعرور بن سويد ، قال : كان عمر بن الخطاب في سفر فصلى الغداة ، ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون : صلى فيه النبي ﷺ . فقال عمر : إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعاً ، فمن عرضت له الصلاة فليصل ، وإلا فليمض .

فلما كان النبي ﷺ لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غير موافقة له في قصده ليس متابعة ،

بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التي هلكوا بها ، ونهى المسلمين عن التشبه بهم في ذلك ، ففاعل ذلك متشبه بالنبي ﷺ في الصورة ، ومتشبه باليهود والنصارى في القصد الذي هو عمل القلب .

وهذا هو الأصل ، فإن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل ، ولهذا لما اشتبه على كثير من العلماء جلسة الاستراحة : هل فعلها استحباباً أو لحاجة عارضة تنازعوا فيها ، وكذلك نزوله بالمحصب عند الخروج من منًى لما اشتبه : هل فعله لأنه كان أسمح بخروجه أو لكونه سنة ؟ تنازعوا في ذلك .

ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبي ﷺ ، وتعريف[1] ابن عباس بالبصرة ، وعمرو بن حريث بالكوفة ، فإن هذا لم يفعله سائر الصحابة ولم يكن النبي ﷺ شرعه لأمته لم يمكن أن يقال هذا سنة مستحبة . بل غايته أن يقال : هذا مما ساغ فيه اجتهاد الصحابة ، أو مما لا ينكر على فاعله لأنه مما يسوغ فيه الاجتهاد ، لا لأنه سنة مستحبة سنها النبي ﷺ لأمته . أو يقال في التعريف : إنه لا بأس به أحياناً لعارض إذا لم يجعل سنة راتبة .

وهكذا يقول أئمة العلم في هذا وأمثاله : تارة يكرهونه ، وتارة يسوغون فيه الاجتهاد ، وتارة يرخصون فيه إذا لم يتخذ سنة ، ولا يقول عالم بالسنة : إن هذه سنة مشروعة للمسلمين . فإن ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله ﷺ ، إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشرع ، وما سنة خلفاؤه الراشدون فإنما سنوه بأمره فهو من سننه ، ولا يكون في الدين واجباً إلا ما أوجبه ، ولا حراماً إلا ما حرمه ، ولا مستحباً إلا ما استحبه ، ولا مكروهاً إلا ما كرهه ، ولا مباحاً إلا ما أباحه .

وهكذا في الاباحات ، كما استباح أبو طلحة أكل البَرَد وهو صائم ، واستباح حذيفة السحور بعد ظهور الضوء المنتشر حتى قيل هو النهار ، إلا أن الشمس لم تطلع . وغيرهما من الصحابة لم يقل بذلك ، فوجب الرد إلى الكتاب والسنة .

وكذلك الكراهية والتحريم . مثل كراهة عمر وابنه للطيب قبل الطواف بالبيت ، وكراهة من كره من الصحابة فسخ الحج إلى التمتع ، أو التمتع مطلقاً ، أو رأى تقدير

---

(١) أي التكبير ليلة العيد .

مسافة القصر بحدٍ حدَّه ، وأنه لا يقصر بدون ذلك ، أو رأى أنه ليس للمسافر أن يصوم في السفر ، ومن ذلك قول سلمان : إن الريق نجس ، وقول ابن عمر : أن الكتابية لا يجوز نكاحها ، وتوريث معاذ ومعاوية للمسلم من الكافر ، ومنع عمر وابن مسعود للجنب أن يتيمم ، وقول علي وزيد وابن عمر في المفوضة : إنه لا مهر لها إذا مات الزوج ، وقول علي وابن عباس في المتوفى عنها الحامل : إنها تعتدُّ أبعد الأجلين ، وقول ابن عمر وغيره : إن المحرم إذا مات بطل إحرامه وفعل به ما يفعل بالحلال . وقول ابن عمر وغيره : لا يجوز الاستراط في الحج ، وقول ابن عباس وغيره في المتوفى عنها : ليس عليها لزوم المنزل ، وقول عمر وابن مسعود : أن المبتوتة لها السكنى والنفقة .

وأمثال ذلك مما تنازع فيه الصحابة ، فإنه يجب فيه الرد إلى الله والرسول ، ونظائر هذا كثيرة فلا يكون شريعة للأمة إلا ما شرعه رسول الله ﷺ .

ومن قال من العلماء : قول الصحابي حجة ، فأنما قاله إذا لم يخالفه غيره من الصحابة ولا عرف نص يخالفه ، ثم إذا اشتهر ولم ينكروه كان إقراراً على القول ، فقد يقال : « إجماع إقراري » إذا عرف أنهم أقروه لم ينكره أحد منهم ، وهم لا يقرون على باطل . وأما إذا لم يشتهر فهذا إن عرف أن غيره لم يخالفه فقد يقال : « هو حجة » . وأما إذا عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق ، وأما إذا لم يعرف هل وافقه غيرهه أو خالفه لم يجزم بأحدهما ، ومتى كانت السنة تدل على خلافه كانت الحجة في سنة رسول الله ﷺ لا فيما يخالفها بلا ريب عند أهل العلم .

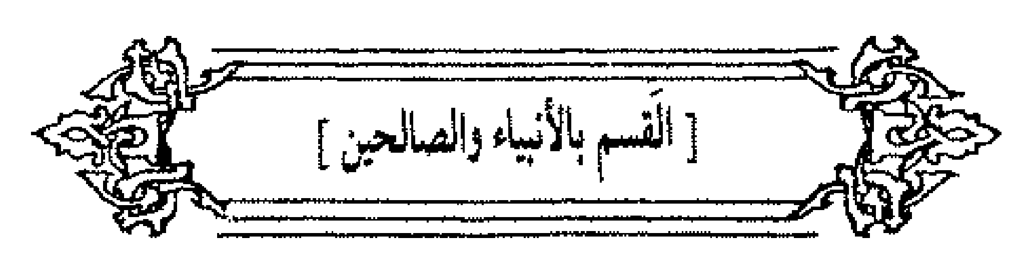
وإذا كان كذلك فمعلوم أنه إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من المشروع المستحب أن يتوسل بالنبي ﷺ بعد موته من غير أن يكون النبي ﷺ داعياً له ولا شافعاً فيه ، فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعاً بعد مماته كما كان يشرع في حياته ، بل كانوا في الاستسقاء في حياته يتوسلون به ، فلما مات لم يتوسلوا به ، بل قال عمر في دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق أهل العلم بمحضر من المهاجرين والأنصار في عام الرمادة المشهور لما اشتد بهم الجدب حتى حلف عمر لا يأكل سمناً حتى يخصب الناس ، ثم لما استسقى الناس ، ثم لما استسقى بالناس قال : « اللهم إنا كنا إذا جدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » فيسقون . وهذا دعاء أقره عليه جميع الصحابة ولم ينكره أحد مع

شهرته ، وهو من أظهر الإجماعات الإقرارية ، ودعا بمثله معاوية بـن أبي سفيان في خلافته لما استسقى بالناس .

فلو كان توسلهم بالنبي ﷺ بعد مماته كتوسلهم في حياته لقالوا : كيف تتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما ؟ ونعدل عن التـوسل بـالنبي ﷺ الذي هـو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل وأعظمها عند الله ؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم ، وقد علم أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته ، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره ، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته .

وحديث الأعمى حجة لعمر وعامة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فإنه إنما أمر الأعمى أن يتوسل إلى الله بشفاعة النبي ﷺ ودعـائه لا بـذاته ، وقـال له في الدعاء : « قل اللهم شفعه فيّ » ، وإذا قدر أن بعض الصحابة أمر غيـره أن يتوسـل بذاته لا بشفاعته ولم يأمر بالدعاء المشروع بـل ببعضه وترك سائره المتضمن للتـوسل بشفاعته ، كـان ما فعله عمـر بن الخطاب هـو الموافق لسنـة رسول الله ﷺ ، وكـان المخالف لعمر محجوباً بسنة رسول الله ﷺ ، وكان الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ حجة عليه لا له . والله أعلم .

فصل



وأما القسم الثالث مما يسمى : « توسلاً » فلا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئاً يحتج به أهل العلم ـ كما تقدم بسط الكلام على ذلك ـ وهو الإقسام على الله عز وجل بالأنبياء والصالحين أو السؤال بأنفسهم ، فإنه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئاً ثابتاً لا في الإقسام أو السؤال به ، ولا في الإقسام أو السؤال بغيره من المخلوقين ، وإن كان من العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهي عنه ، فتكون مسألة نزاع كما تقدم بيانه ، فيرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ، ويبدي كل واحد حجته كما في سائر مسائل النزاع ، وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين ، بل المعاقب على ذلك معتدٍ جاهل ظالم ، فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء ، والمنكر عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ، وقد ثبت أنه لا يجوز القسم بغير الله لا بالأنبياء ولا بغيرهم كما سبق بسط الكلام في تقرير ذلك ، وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغير نبي ، وأن هذا النذر نذر شرك لا يوفى به ، وكذلك الحلف بالقرآن [أو][1] بالمخلوقات لا ينعقد به اليمين ، ولا كفارة فيه ، حتى لو حلف بالنبي ﷺ لم ينعقد يمينه كما تقدم ذكره ، ولم يجب عليه كفارة عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين ، بل نهى عن الحلف بهذه اليمين ، فإذا لم يجز أن يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على مخلوق فكيف يقسم بها على الخالق جل جلاله ؟

---

(١) زيدت على المطبوع لوضوح العبارة .

وأما السؤال به من غير إقسام به ، أيضاً مما منع منه غير واحد من العلماء ، والسنن الصحيحة عن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين تدل على ذلك ، فإن هذا إنما يفعله على أنه قربة وطاعة وأنه مما يستجاب به الدعاء ، وما كان من هذا النوع فإما أن يكون واجباً وإما أن يكون مستحباً ، وكل ما كان واجباً أو مستحباً في العبادات والأدعية فلا بد أن يشرعه النبي ﷺ لأمته ، فإذا لم يشرع هذا لأمته لم يكن واجباً ولا مستحباً ولا يكون قربة وطاعة ولا سبباً لإجابة الدعاء ، وقد تقدم بسط الكلام على هذا كله . فمن اعتقد ذلك في هذا أو في هذا فهو ضال وكانت بدعته من البدع السيئة ، وقد تبين بالأحاديث الصحيحة وما استقرىء من أحوال النبي ﷺ وخلفائه الراشدين أن هذا لم يكن مشروعاً عندهم .

وأيضاً فقد تبين أنه سؤال لله تعالى بسبب لا يناسب إجابة الدعاء وأنه كالسؤال بالكعبة والطور والكرسي والمساجد وغير ذلك من المخلوقات ، ومعلوم أن سؤال الله بالمخلوقات ليس هو مشروعاً ، كما أن الإقسام بها ليس مشروعاً بل هو منهي عنه ، فكما أنه لا يسوغ لأحد أن يحلف بمخلوق فلا يحلف على الله بمخلوق ولا يسأله بنفس مخلوق ، وإنما يسأل بالأسباب التي تناسب إجابة الدعاء كما تقدم تفصيله ، لكن قد روي في جواز ذلك آثار وأقوال عن بعض أهل العلم ؛ ولكن ليس بالمنقول عن النبي ﷺ شيء ثابت بل كلها موضوعة ، وأما النقل عن من ليس قوله حجة فبعضه ثابت وبعضه ليس بثابت، والحديث الذي رواه أحمد وابن ماجة وفيه: «بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا» رواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن مرزوق عن عطية[1] عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « **من قال إذا خرج إلى الصلاة : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فإني لم أخرجه أشراً ولا بطراً ، ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار وأن تدخلني الجنة وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضي صلاته** » .

وهذا الحديث هو من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد ، وهو ضعيف بإجماع أهل العلم ، وقد روي من طريق آخر وهو ضعيف أيضاً ، ولفظه لا حجة فيه ، فإن حق السائلين عليه أن يجيبهم وحق العابدين أن يثيبهم ، وهو حق أحقه الله تعالى على

(١) أي عطية بن سعد العوفي .

نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم ، وبإيجابه على نفسه في أحد أقوالهم ، وقد تقدم بسط الكلام على ذلك ، وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوه في الغار بأعمالهم فإنه سأله هذا ببره العظيم لوالديه وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة ، لأن هذه الأعمال أمر الله بها ووعد الجزاء لأصحابها فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله : ﴿ رَبَّنا إِنَّنا سَمِعنا مُنادِياً يُنادي للإيمان أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُم فَآمَنَّا ، رَبَّنا فاغفر لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّر عَنَّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الأبرار ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ كان فَريقٌ مِنْ عِبادي يَقولُونَ : رَبَّنا آمَنَّا فاغْفر لَنا وارْحَمنا وأَنْتَ خَيْرُ الراحمين ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بخير من ذَلكم لِلَّذِينَ اتَّقَوا عند رَبِّهم جَنَّاتٌ تَجري مِنْ تَحتِها الأَنْهارُ خالدينَ فِيهَا وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصيرٌ بالعبادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فاغْفر لنا ذُنُوبَنَا وَقِنا عَذابَ النَّار ﴾[3] وكان ابن مسعود يقول في السحر : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطلعت ، وهذا سحر فاغفر لي .

وأصل هذا الباب أن يقال : الإقسام على الله بشيء من المخلوقات ، والسؤال له به ، إما أن يكون مأموراً به إيجاباً أو استحباباً ، أو منهياً عنه نهي تحريم أو كراهة ، أو مباحاً لا مأموراً به ولا منهياً عنه . وإذا قيل : إن ذلك مأمور به أو مباح ، فأما أن يفرق بين مخلوق ومخلوق أو يقال : بل يشرع بالمخلوقات المعظمة أو ببعضها . فمن قال إن هذا مأمور به أو مباح في المخلوقات جميعها لزم أن يسأل الله تعالى بشياطين الأنس والجن فهذا لا يقوله مسلم . فإن قال : بل يسأل بالمخلوقات المعظمة كالمخلوقات التي أقسم بها في كتابه ، لزم من هذا أن يسأل بالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والذكر والأنثى ، والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ـ ويسأل الله تعالى ويقسم عليه بالخُنس الجواري الكُنَّس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، ويسأل بالذريات ذوراً ، فالحاملات وقرا ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : (١٩٣) .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : (١٠٩) .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتان : (١٥ و ١٦) .

فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمراً ـ ويسأل بالطور ، وكتاب مسطور في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ـ ويسأل ويقسم عليه بالصافات صفاً ، وسائر ما أقسم به الله في كتابه ، فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لأنها آياته ومخلوقاته فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته ، فهو سبحانه يقسم بها لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه ، ونحن المخلوقات ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع . بل ذكر غير واحد الإجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك ، بل ذلك شرك منهي عنه . ومن سأل الله بها لزمه أن يسأله بكل ذكر وأنثى ، وبكل نفس ألهمها فجورها وتقواها ، ويسأله بالرياح والسحاب والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار والتين والزيتون وطور سنين ، ويسأله بالبلد الأمين مكة ، ويسأله حينئذ بالبيت والصفا والمروة وعرفه ومزدلفة ومني وغير ذلك من المخلوقات ، ويلزم أن يسأله بالمخلوقات التي عبدت من دون الله ، كالشمس والقمر والكواكب والملائكة والمسيح والعزير وغير ذلك مما عبد من دون الله ومما لم يعبد من دونه .

ومعلوم أن السؤال لله بهذه المخلوقات أو الإقسام عليه بها من أعظم البدع المنكرة في دين الإسلام ، ومما يظهر قبحه للخاص والعام ، ويلزم من ذلك أن يقسم على الله تعالى بالأقسام والعزائم التي تكتب في الحروز والهياكل التي تكتبها الطرقية والمعزمون . بل ويقال : إذا جاز السؤال والإقسام على الله بها فعلى المخلوقات أولى ، فحينئذ تكون العزائم والأقسام التي يقسم بها على الجن مشروعة في دين الإسلام ، وهذا الكلام يستلزم الكفر والخروج من دين الإسلام ومن دين الأنبياء أجمعين .

وإن قال قائل : بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظَّم من المخلوقات ، إما الأنبياء دون غيرهم أو نبي دون غيره ، كما جوز بعضهم الحلف بذلك ، أو الأنبياء والصالحين دون غيرهم . قيل له : بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فكلها مشتركة في أنه لا يجعل شيء منها نداً لله تعالى ، فلا يُعبدُ ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقي ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه ، ولا يقسم بمخلوق ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت** » وقال : « **لا تحلفوا إلا بالله** » وفي السنن عنه أنه قال : « **من حلف بغير الله فقد أشرك** » فقد

ثبت بالنصوص الصحيحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات ، لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي . وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات في ذم الشرك بها وإن كانت معظمة . قال تعالى : ﴿ ما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتابَ والحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لي مِن دُونِ اللَّهِ وَلكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتابَ وبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأمُرَكُمْ أنْ تَتَّخِذُوا الملائِكَة والنَّبِيِّينَ أرباباً ، أيَأمُرُكُم بِالكُفرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُسْلِمُونَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّـذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرُ عَنْكُمْ وَلاَ تحويلاً * أُولئِكَ الَّـذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُون إلى رَبِّهِم الوَسِيلَةَ أيُّهم أقرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذَابَ ، إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كانَ مَحذُوراً ﴾[2] قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة ، فقال تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ، ويتقربون إليَّ كما تتقربون إليَّ . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُوله وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ ، فأولئِكَ هُمُ الفائِزُونَ ﴾[3] فبين أن الطاعة لله والرسول ، فإنه من يُطع الرسول فقد أطاع الله ، وبيَّن أن الخشية والتقوى لله وحده فلم يأمر أن يخشى مخلوق ولا يتقى مخلوق . وقال تعالى : ﴿ وَلَـوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مـا آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُـوا حَسْبُنا اللَّهُ سَيُؤْتِينـا اللَّهُ مِن فَضلِهِ وَرَسُولُـهُ ، إنَّا إلى اللَّهِ راغِبُون ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ فَإذا فَرَغتَ فانْصَب ، وإلى رَبِّكَ فارْغَب ﴾[5] فبين سبحانه وتعالى أنه كان ينبغي لهؤلاء أن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله ، ويقولوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون ، فذكر الرضا بما آتاه الله ورسوله لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ووعده وعيده . فالحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : (٧٩ و ٨٠) .
(٢) سورة الإسراء ، الآيتان : (٥٦ و ٥٧) .
(٣) سورة النور ، الآية : (٥٢) .
(٤) سورة التوبة ، الآية : (٥٩) .
(٥) سورة التين ، الآيتان : (٧ و ٨) .

شرعه الله ورسوله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَما آتاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[1] فليس لأحد أن يأخذ من الأموال إلا ما أحله الله ورسوله ، والأموال المشتركة له ، كمال الفيء والغنيمة والصدقات ، عليه أن يرضى بما آتاه الله ورسوله منها وهو مقدار حقه لا يطلب زيادة على ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾[2] ولم يقل : « ورسوله » فإن الحَسب هو الكافي ، والله وحده هو كاف عباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النبيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَن اتَّبعكَ مِن المُؤمنين ﴾[3] أي وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين . هذا هو القول الصواب الذي قاله جمهور السلف والخلف كما بين في موضع آخر ، والمراد أن الله كاف للرسول ولمن اتبعه . فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه ، ثم قال تعالى : ﴿ سَيُؤتينا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُه ﴾[4] فذكر الإيتاء لله ورسوله ، لكن وسطه بذكر الفضل فإن الفضل لله وحده بقوله : ﴿ سَيُؤتِينا اللَّهُ مِنْ فَضلِه وَرَسُولُه ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إنَّا إلى اللَّهِ راغِبُونَ ﴾ فجعل الرغبة إلى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات .

فقد تبين أن الله سوَّى بين المخلوقات في هذه الأحكام . لم يجعل لأحد من المخلوقين ـ سواء كان نبياً أو ملكاً ـ أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب إليه ولا يخشى ولا يتقى . وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، لا يَمْلكُون مِثقالَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ وَلَا في الأرضِ وَما لَهُمْ فيهما من شرك وما لَهُ مِنْهُمْ من ظهير * ولا تَنْفَعُ الشفاعَةُ عنده إلَّا لمن أذِنَ لَه ﴾[5] .

فقد تهدد سبحانه من دعا شيئاً من دون الله وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركاء في ملكه ، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين . فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة ، ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق ، لكن قال

---

(١) سورة الحشر ، الآية : (٨) .
(٢) سورة التوبة ، الآية : (٥٩) .
(٣) سورة الأنفال ، الآية : (٦٤) .
(٤) سورة التوبة ، الآية : (٥٩) .
(٥) سورة سبأ ، الآيتان : (٢٢ و٢٣) .

الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ وهكذا دلت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة يوم القيامة ، إذا أتى الناسُ آدم وأولي العزم نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم فيردهم كل واحد إلى الذي بعده ، إلى أن يأتوا المسيح فيقول : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال ﷺ : « **فيأتوني فأذهب إلى ربي ، فإذا رأيته خررت ساجداً وأحمد ربي بمحامد يفتحها عليَّ لا أحسنها الآن ، فيقال لي : أي محمد ، ارفع رأسك ، وقل تسمع ؛ وسل تعطه ، واشفع تشفع ـ قال ـ فيحدّ لي حدّ فأدخلهم الجنة** » وذكر تمام الخبر .

فبين المسيح أن محمداً هو الشافع المشفع ، لأنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبين محمدٌ عبد الله ورسوله أفضل الخلق وأوجَهُ الشفعاء وأكرمهم على الله تعالى أنه يأتي فيسجد ويحمد ، لا يبدأ بالشفاعة حتى يؤذن له ، فيقال له : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ، وذكر أن ربه يحد له حداً فيدخلهم الجنة .

وهذا كله يبين أن الأمر كله لله ، هو الذي يلزم الشفيع بالإذن له في الشفاعة ، والشفيع لا يشفع إلا فيمن يأذن الله له ، ثم يحد للشفيع حداً فيدخلهم الجنة . فالأمر بمشيئته وقدرته واختياره . وأوجَهُ الشفعاء وأفضلهم هو عنده الذي فضله على غير واختاره واصطفاه بكمال عبوديته وطاعته وإنابته وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه .

وإذا كان الإقسام بغير الله والرغبة إليه وخشيته وتقواه ونحو ذلك هي من الأحكام التي اشتركت المخلوقات فيها فليس لمخلوق أن يقسم به ولا يتقي ولا يتوكل عليه وإن كان أفضل المخلوقات ، ولا يستحق ذلك أحد من الملائكة والنبيين ، فضلاً عن غيرهم من المشايخ والصالحين .

فالسؤال لله تعالى بالمخلوقات إن كان بما أقسم به وعظمه من المخلوقات فيسوغ السؤال بذلك كله وإن لا لم يكن سائغاً ولم يجز أن يسأل بشيء من ذلك . والتفريق في ذلك بين معظم ومعظم كتفريق من فرق فزعم أنه يجوز الحلف ببعض المخلوقات دون بعض ، وكما أن هذا فرق باطل فكذلك الآخر . ولو فرق مفرق بين ما يؤمن به وبين ما لا يؤمن به ، قيل له فيجب الإيمان بالملائكة والنبيين ، ويؤمن بكل ما أخبر به الرسول مثل منكر ونكير والحور العين والولدان وغير ذلك ، أفيجوز أن يقسم بهذه المخلوقات لكونه يجب الإيمان بها ؟ أم يجوز السؤال بها كذلك ؟ .

فتبين أن السؤال بالأسباب إذا لم يكن المسؤول به سبباً لإجابة الدعاء فلا فرق بين السؤال بمخلوق ومخلوق ، كما لا فرق بين القسم بمخلوق ومخلوق ، وكل ذلك غير جائز . فتبين أنه لا يجوز ذلك كما قاله من قاله من العلماء . والله أعلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ وكانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتحونَ عَلَى الَّـذِينَ كَفَرُوا ﴾[1] فكانت اليهود تقول للمشركين : سوف يبعث هذا النبي ونقاتلكم معه فنقتلكم ، لم يكونوا يقسمون على الله بذاته ولا يسألون به ، بل يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الأمي لنتبعه ونقتل هؤلاء معه . هذا هو النقل الثابت عند أهل التفسير وعليه يدل القرآن فإنه قال تعالى : ﴿ وكانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ والاستفتاح الاستنصار ، وهو طلب الفتح والنصر ، فطلب الفتح والنصر به هو أن يُبعث فيقاتلونهم معه ، فبهذا ينصرون ، ليس هو بإقسامهم به وسؤالهم به ، إذ لو كان كذلك لكانوا إذا سألوا أو أقسموا به نصروا ، ولم يكن الأمر كذلك ، بل لما بعث الله محمداً ﷺ نصر الله من آمن به وجاهد معه على من خالفه . وما ذكره بعض المفسرين من أنهم يقسمون به أو يسألون به فهو نقل شاذ مخالف للنقول الكثيرة المستفيضة المخالفة له . وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في (دلائل النبوة) وفي كتاب (الاستغاثة الكبير) .

وكتب السيرة ودلائل النبوة والتفسير مشحونة بذلك . قال أبو العالية وغيره : كان اليهود إذا استنصروا بمحمد ﷺ على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نغلب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات : ﴿ فَلَمَّا جاءهُم ما عَرَفُوا كَفَرُوا به ، فَلَعْنَةُ اللَّهُ عَلَى الكَافرين ﴾[2] .

وروى محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا : مما دعانا إلى الإسلام ـ مع رحمة الله وهداه ـ ما كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور . فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٨٩) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٨٩) .

تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . كثيراً ما كنا نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله محمداً رسولاً من عند الله أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات التي في البقرة : ﴿ وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ من عندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا من قَبل يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾[1] .

ولم يذكر ابن أبي حاتم وغيره ممن جمع كلام مفسري السلف إلا هذا ، وهذا لم يذكر فيه السؤال به عن أحد من السلف ، بل ذكروا الأخبار به ، أو سؤال الله أن يبعثه ، فروى ابن أبي حاتم عن أبي رزين عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ قال : يستظهرون . يقولون : نحن نعين محمداً عليهم ، وليسوا كذلك يكذبون . وروي عن معمر عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذينَ كَفَروا ﴾ قال : كانوا يقولون : إنه سيأتي نبي ﴿ فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا به ﴾ .

وروي بإسناده عن ابن إسحاق : حدثنا محمد بن أبي محمد قال : أخبرني عكرمة ـ أو سعيد بن جبير ـ عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله تعالى من قولهم : ﴿ وَلما جاءهُم كتاب من عند الله مُصَدِّقٌ لما مَعهُم وكانوا منْ قَبْلُ يَستَفتحُون عَلَى الَّذينَ كفَرُوا فَلَمَّا جاءهُم ما عَرَفُوا كفَرُوا به ، فَلَعْنَةُ اللَّهَ عَلَى الكافرين ﴾ .

وروي بإسناده عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٨٩) .

عندنا ، حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أن رسول الله ﷺ ، فقال الله : ﴿ فَلَمَّا جاءهُم ما عَرَفوا كَفَرُوا به فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكافرينَ ﴾ .

وأما الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانت يهود خيبر تقاتل غَطفان فكلما التقوا هُزمت يهود فعاذت بهذا الدعاء : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم . فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان . فلما بعث النبي ﷺ كفروا به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ .

وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه وقال : أدَّت الضرورة إلى إخراجه . وهذا مما أنكره عليه العلماء ، فإن عبد الملك بن هارون من أضعف الناس ، وهو عند أهل العلم بالرجال متروك بل كذاب . وقد تقدم ما ذكره يحيى بن معين وغيره من الأئمة في حقه .

قلت : وهذا الحديث من جملتها ، وكذلك الحديث الآخر الذي يرويه عن أبي بكر كما تقدم ، ومما يبين ذلك أن قوله تعالى : ﴿ وكانُوا من قَبلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذينَ كَفَرُوا ﴾ إنما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير في اليهود المجاورين للمدينة أولاً كبني قينقاع وقريظة والنضير ، وهم الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج ، وهم الذين عاهدهم النبي ﷺ لما قدم المدينة ، ثم لما نقضوا العهد حاربهم ، فحارب أولاً بني قينقاع ثم النضير - وفيهم نزلت سورة الحشر - ثم قريظة عام الخندق . فكيف يقال نزلت في يهود خيبر وغطفان ؟ فإن هذا من كذب جاهل لم يحسن كيف يكذب ، ومما يبين ذلك أنه ذكر فيه انتصار اليهود على غطفان لما دعوا بهذا الدعاء وهذا مما لم ينقله أحد غير هذا الكذاب ، ولو كان هذا مما وقع لكان مما تتوفر دواعي الصادقين على نقله .

ومما ينبغي أن يعلم أن مثل هذا اللفظ لو كان مما يقتضي السؤال به والإقسام به على الله تعالى لم يكن مثل هذا مما يجوز أن يعتمد عليه في الأحكام ، لأنه أولاً لم يثبت ، وليس في الآية ما يدل عليه ، ولو ثبت لم يلزم أن يكون هذا شرعاً لنا ، فإن

الله تعالى قد أخبر عن سجود إخوة يوسف وأبويه وأخبر عن الذين غلبوا على أهل الكهف أنهم قالوا : ﴿ لنتخذنَّ عليهم مسجداً ﴾[1] ونحن قد نهينا عن بناء المساجد على القبور ، ولفظ الآية إنما فيه أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنْ تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾[2] . والاستفتاح طلب الفتح وهو النصر ، ومنه الحديث المأثور أن النبي ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أي يستنصر بهم ، أي بدعائهم ، كما قال : « وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ، بصلاتهم ودعائهم وإخلاصهم؟ » وهذا قد يكون بأن يطلبوا من الله تعالى أن ينصرهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان ، بأن يعجل بعث ذلك النبي إليهم لينتصروا به عليهم ، لا لأنهم أقسموا على الله وسألوا به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فلمّا جاءهُمْ ما عَرَفُوا كفَرُوا بِهِ فلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الكافرين ﴾ فلو لم ترد الآثار التي تدل على أن هذا معنى الآية لم يجز لأحد أن يحمل الآية على ذلك المعنى المتنازع فيه بلا دليل ، لأنه لا دلالة فيها عليها ، فكيف وقد جاءت الآثار بذلك ؟ .

وأما ما تقدم ذكره عن اليهود من أنهم كانوا ينصرون ، فقد بينا أنه شاذ ، وليس هو من الآثار المعروفة في هذا الباب ، فإن اليهود لم يعرف أنها غلبت العرب بل كانوا مغلوبين معهم ، وكانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقاً كما كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج . وأما كون اليهود كانوا ينتصرون على العرب فهذا لا يعرف بل المعروف خلافه ، والله تعالى قد أخبر بما يدل على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أينما ثُقِفوا إلاَّ بحَبلٍ مِن اللَّهِ وَحَبْلٍ منَ النَّاس ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[3] .

فاليهود - من حيث ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس - لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم ، وإنما كانوا يقاتلون

---

(١) سورة الكهف ، الآية : (٢١) .
(٢) سورة الأنفال ، الآية : (١٩) .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : (١٢٢) .

مع حلفائهم قبل الإسلام ، والذلة ضربت عليهم من حين بُعث المسيح عليه السلام فكذّبوه . قال تعالى : ﴿ يا عِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إليَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا أنْصَارَ الله كما قَالَ عِيسى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّين : مَنْ أنْصاري إلى الله ؟ قالَ الحَوارِيُّونَ : نَحْنُ أنْصَارُ اللَّهِ . فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَني إسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فأيَّدْنا الَّذينَ آمَنُوا عَلى عَدوِّهِمْ فَأصْبَحُوا ظَاهِرينَ ﴾[2] وكانوا قد قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قال تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذلِكَ بِأنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[3] .

فإذا لم يكن الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره ، في حياته ﷺ وبعد موته ، يقسمون بذاته بل إنما كانوا يتوسلون بطاعته أو بشفاعته ، فكيف يقال في دعاء المخلوقين الغائبين والموتى وسؤالهم من الأنبياء والملائكة وغيرهم ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلُكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحويلاً * أُولئِكَ الَّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمْ الوَسِيلَةَ أيُّهُمْ أقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً ﴾[4] .

قالت طائفة من السَّلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء والمسيح وعزير وغيرهما ، فنهى الله عن ذلك وأخبر تعالى أن هؤلاء يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه ، وأنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله عنهم . وقد قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، ولَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُم تُعَلِّمُونَ الكِتابَ وبما كُنْتُمْ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٥٥) .
(٢) سورة الصف ، الآية : (١٤) .
(٣) سورة البقرة ، الآية : (٦١) .
(٤) سورة الإسراء ، الآيتان : (٥٦ و٥٧) .

تَدْرُسُونَ * وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الملائكةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ، أَيَأْمُـرُكُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يتخذ قبره مسجداً وأن يتخذ عيداً ، وقـال في مرض موته : « **لعنة الله على اليهود والنصارى اتّخذوا قبـور أنبيائهم مسـاجد** » يحـذِّر ما صنعوا . أخرجاه في الصحيحين . وقال : « **اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتدّ غضب الله على قوم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » رواه مـالك في موطئه ، وقـال : « **لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله** » متفق عليه . وقال : « **لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد . بل ما شاء الله ثم شاء محمد** » وقال له بعض الأعراب : ما شاء الله وشئتَ فقال : « **أجعلتني لله نِدّاً ؟ بل ما شاء الله وحده** » وقد قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً ولا ضَراً إِلاَّ ما شاء اللَّهُ ، ولَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخيرِ ومَا مَسَّنِيَ السُّوء** ﴾[2] وقـال تعالى : ﴿ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نفعاً ولا ضراً** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاء** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِن الأَمْرِ شَيْء** ﴾[5] وهذا تحقيق التوحيد ، مع أنه ﷺ أكرم الخلق على الله ، وأعلاهم منزلة عند الله .

وقد روى الطبراني في معجمه الكبير أن منافقاً كان يؤذي المؤمنين ، فقال أبو بكـر : قومـوا نستغيث برسـول الله من هذا المنافق . فقال لـه النبي ﷺ : « **إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله** » . وفي صحيح مسلم في آخره أنه قال قبل أن يموت بخمس : « **إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبـور مساجـد ألا فلا تتخـذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلـك** » . وفي صحيح مسلم أيضاً وغيره أنـه قال : « **لا تجلسـوا على القبور ولا تصلوا إليهـا** » وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ ولـه طرق متعـددة عن غيرهمـا ـ أنه قـال : « **لا تُشَدُّ الـرِّحالُ إلاَّ إلى ثلاثة**

---

(1) سورة آل عمران ، الآيتان : (٧٩ و ٨٠) .
(2) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٨) .
(3) سورة يونس ، الآية : (٤٩) .
(4) سورة القصص ، الآية : (٥٦) .
(5) سورة آل عمران ، الآية : (١٢٨) .

مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » . وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي ﷺ فقال مالك : إن كان أراد القبر فلا يأته ، وإن أراد المسجد فليأته . ثم ذكر الحديث « لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلى ثلاثة مساجد » ذكره القاضي إسماعيل في مبسوطه .

ولو حلف حالف بحق المخلوقين لم ينعقد يمينه ، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء والملائكة وغيرهم ، ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم . وللأنبياء حق ، وللمؤمنين حق ، ولبعضهم على بعض حق . فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشرك به كما تقدم في حديث معاذ ، ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا إليه ، ولا يجعلوا لله نِدّاً لا في محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الاستعانة به ، كما في الصحيحين أنه قال ﷺ : « من مات وهو يدعو نِدّاً من دون الله دخل النار » وسئل : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك » . وقيل له : ما شاء وشئت . فقال: «أجعلتني لله نِدّاً ! بل ما شاء الله وحده » وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاء ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2] ، ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إلهَيْنِ اثْنَيْنِ إنَّما هُو إلـهٌ واحدٌ فإيَّايَ فارْهَبُون ﴾[3] ، ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدونِ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ فَإذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وإلى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[5] وقال تعالى في فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوا النَّاسَ واخْشَوْني ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ الَّذينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ

---

(١) سورة النساء ، الآيتان : (٤٨ و ١١٦) .
(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢٢) .
(٣) سورة النحل ، الآية : (٥١) .
(٤) سورة العنكبوت ، الآية : (٥٦) .
(٥) سورة الشرح ، الآيتان : (٧ و ٨) .
(٦) سورة البقرة ، الآية : (١٦٥) .
(٧) سورة المائدة ، الآية : (٤٤) .

وَيَخْشَوْنَهُ ولا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهُ ﴾[1] .

ولهذا كان المشركون يخوّفون إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه . قال تعالى : ﴿ وحاجَّهُ قَوْمُهُ ، قالَ أَتُحاجُّونِّي في الله وَقَدْ هَداني ، ولا أخافُ ما تُشركونَ بِهِ إلاَّ أَنْ يَشاء رَبِّي شَيْئاً ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ علماً ، أفلا تَتَذَكَّرُون * وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ ولاَ تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً ، فأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بالأَمْنِ إن كُنْتُم تَعْلَمُونَ * الَّذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلم أولئِكَ لَهمْ الأَمْنُ وَهُمْ مهْتَدُونَ ﴾[2] . وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلم ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال لهم النبي ﷺ : « إنما ذاك الشرك كما قال العبد الصالح : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيم ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقه فأولئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾[4] فجعل الطاعة لله والرسول ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . وجعل الخشية والتقوى لله وحده فلا يخشى إلا الله ، ولا يتقى إلاَّ الله . وقال تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوا النَّاسَ واخْشُونِ ولا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قَليلاً ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُم مُؤمِنينَ ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولهُ وقَالُوا حَسْبُنا اللَّهُ سَيُؤْتِينا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسولُهُ ، إنَّا إلى اللَّهِ راغِبُون ﴾[7] فجعل سبحانه الإيتاء لله والرسول في أول الكلام وآخره كقوله تعالى : ﴿ وَما آتاكُم الرَّسولُ فخُذُوه وما نَهاكُمْ عَنْهُ

(١) سورة الأحزاب ، الآية : (٣٩) .
(٢) سورة الأنعام ، الآيات : (٨٠ - ٨٢) .
(٣) سورة لقمان ، الآية : (١٣) .
(٤) سورة النور ، الآية : (٥٢) .
(٥) سورة المائدة ، الآية : (٤٤) .
(٦) سورة آل عمران ، الآية : (١٧٥) .
(٧) سورة التوبة ، الآية : (٥٩) .

فانْتَهُوا ﴾[1] مع جعله الفضل لله وحده ، والرغبة إلى الله وحده حسبهم لا شريك له في ذلك . وروى البخاري عن ابن عباس في قوله : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكيل ﴾ قال : قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد : حين ﴿ قالَ لَهُمْ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيماناً وقالُوا : حَسْبُنا اللَّهُ ونِعْمَ الوَكيل ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ومَن اتَّبَعَكَ منَ المؤمِنينَ ﴾[3] . ومعنى ذلك عند جماهير السلف والخلف أن الله وحده حَسْبُك وحَسْبُ من اتبعك من المؤمنين ، كما بسط ذلك بالأدلة . وذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله أمره ونهيه ووعده ووعيده .

فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرَّمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله . فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضي الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ ورَسُولُهُ أحَقُّ أنْ يُرْضُوهُ إن كانوا مُؤمنين ﴾[4] وقد تعالى : ﴿ أطيعُوا اللَّهَ وأطِيعُوا الرَّسُول ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطاعَ الله ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كانَ آباؤكُمْ وأبْناؤكُمْ وإخْوانكُمْ وأزْواجُكُمْ وعَشيرتُكُمْ وأمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وتجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها ومَساكِنُ تَرْضَوْنَها أحَبَّ إلَيْكُم منَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأمْرِهِ ﴾[7] .

وفي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما ، ومن كان يحب

---

(١) سورة الحشر ، الآية : (٧) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٧٣) .
(٣) سورة الأنفال ، الآية : (٦٤) .
(٤) سورة التوبة ، الآية : (٦٢) .
(٥) سورة النساء ، الآية : (٥٩) .
(٦) سورة النساء ، الآية : (٨٠) .
(٧) سورة التوبة ، الآية : (٢٤) .

المرء لا يحبه إلاَّ الله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِتُؤْمِنوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوه وتُسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأَصيلاً ﴾[1] فالإيمان بالله والرسول ، والتعزير والتوقير للرسول ، وتعزيره نصره ومنعه ، والتسبيح بكرة وأصيلاً لله وحده ، فإن ذلك من العبادة .

والعبادة هي لله وحده : فلا يصلى إلاَّ لله ولا يصام إلاَّ لله ولا يحج إلاَّ إلى بيت الله ، ولا تشد الرحال إلاَّ إلى المساجد الثلاثة ، لكون هذه المساجد بناها أنبياء الله بإذن الله ، ولا ينذر إلاَّ لله ، ولا يحلف إلاَّ بالله ، ولا يُدْعى إلاَّ الله ، ولا يستغاث إلاَّ بالله .

وأما ما خلقه الله سبحانه من الحيوان والنبات والمطر والسحاب وسائر المخلوقات فلم يجعل غيره من العباد واسطة في ذلك الخلق ، كما جعل الرسل واسطة في التبليغ ، بل يخلق ما يشاء من الأسباب ، وليس في المخلوقات شيء يستقل بإبداع شيء ، بل لا بدّ للسبب من أسباب أخر تعاونه ، ولا بد من دفع المعارض عنه ، وذلك لا يقدر عليه إلاَّ الله وحده ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، بخلاف الرسالة فإن الرسول وحده كان واسطة في تبليغ رسالته إلى عباده .

وأما جعل الهدى في قلوب العباد فهو إلى الله تعالى لا إلى الرسول كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكنَّ اللَّهَ يَهدِي منْ يَشاء ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ على هُداهُم فإنَّ الله لا يَهْدي مَنْ يضلّ ﴾[3] . وكذلك دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واستغفارهم وشفاعتهم هو سبب ينفع إذا جعل الله تعالى المحل قابلاً له ، وإلاَّ فلو استغفر النبي للكفار والمنافقين لم يغفر لهم ، قال الله تعالى : ﴿ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾[4] .

---

(١) سورة الفتح ، الآيتان : (٨ و ٩) .
(٢) سورة القصص ، الآية : (٥٦) .
(٣) سورة النحل ، الآية : (٣٧) .
(٤) سورة المنافقون ، الآية : (٦) .

وأما الرسل فقد تبيّن أنهم هم الوسائط بيننا وبين الله عزَّ وجلَّ في أمره ونهيه ووعده ووعيده وخبره ، فعلينا أن نصدقهم في كل ما أخبروا به ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا ، وعلينا أن نصدق بجميع أنبياء الله عز وجل لا نفرق بين أحد منهم ، ومن سبَّ واحداً منهم كان كافراً مرتدّاً مباح الدم .

وإذا تكلمنا فيما يستحقه الله تبارك وتعالى من التوحيد بينا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص ، فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم ، ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ، ولا يقسم على الله بهم ، ولا يتوسل بهم بذواتهم ، وإنما يتوسل بالإيمان بهم ، وبمحبتهم ، وطاعتهم ، وموالاتهم وتعزيرهم ، وتوقيرهم ، ومعاداة من عاداهم ، وطاعتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما حلّلوه ، وتحريم ما حرّموه .

[أقسام التوسل] :

والتوسل بذلك على وجهين :

أحدهما : أن يتوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال ، كحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار ، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم ويفرج كربتهم ، وقد تقدم بيان ذلك .

والثاني : التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه ، فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ومَثَل هذا كقول المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُم فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾[1] فإنهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء ، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[2] وأمثال ذلك كثير .

وكذلك التوسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته فإنه يكون على وجهين :

---

(١) سورة آل عمران، الآية : (١٩٣) .

(٢) سورة النور ، الآية : (١٠٩) .

أحدهما : أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع ، كما كان يطلب منه في حياته ، وكما يطلب منه يوم القيامة ، حين يأتون آدم ونوحاً ثم الخليل ثم موسى الكليم ثم عيسى ، ثم يأتون محمداً صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فيطلبون منه الشفاعة .

الوجه الثاني : أن يكون التوسل مع ذلك بأن يسأل الله تعالى بشفاعته ودعائه ، كما في حديث الأعمى المتقدم بيانه وذكره فإنه طلب منه الدعاء والشفاعة ، فدعا له الرسول وشفع فيه وأمره أن يدعو الله فيقول : « اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك به ، اللهمَّ فشفِّعه فيَّ » فأمره أن يسأل الله تعالى قبول شفاعته . بخلاف من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول ، والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه ، فهذا توسل بما لم يوجد ، وإنما يتوسل بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه . ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقت الاستسقاء كما تقدَّم ، فإن عمر والمسلمين توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله تعالى مع دعاء العباس ، فإنهم استشفوا جميعاً ، ولم يكن العباس وحده هو الذي دعا لهم ، فصار التوسل بطاعته والتوسل بشفاعته كل منهما يكون مع دعاء المتوسل وسؤاله ولا يكون بدون ذلك . فهذه أربعة أنواع كلها مشروعة لا ينازع في واحد منها أحد من أهل العلم والإيمان .

* * *

ودين الإسلام مبني على أصلين ، وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلاَّ الله ، وأن محمداً رسول الله . وأول ذلك أن لا تجعل مع الله إلهاً آخر ، فلا تحب مخلوقاً كما تحب الله ، ولا ترجوه كما ترجو الله ، ولا تخشاه كما تخشى الله ، ومن سوَّى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عَدَل بالله[1] ، وهو من الذين بربهم يعدلون ، وقد جعل مع الله إلهاً آخر ، وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض . فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله ﴾[2] وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، قال تعالى : ﴿ أَإِنَّكُمْ

---

(١) أي جعل له عدلاً ونظيراً .

(٢) سورة لقمان ، الآية : (٢٥) وسورة الزمر ، الآية : (٣٨) .

لَتشْهَدُونَ أنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخرى ، قُلْ لا أشْهَدُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أنْداداً يُحبُّونَهُمْ كحُبِّ اللَّهِ وَالَّذينَ آمَنُوا أشَدُّ حبًّا لله ﴾[2] فصاروا مشركين لأنهم أحبوهم كحبه ، لأنهم قالوا إن آلهتهم خلقوا كخلقه . كما قال تعالى : ﴿ أمْ جَعَلُوا للَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ، فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِم ﴾[3] وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي ، أي ما جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فإنهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلقه ، وإنما كانوا يجعلونهم شفعاء ووسائط . قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ ويَقُولُونَ هؤلاء شُفَعاؤنا عنْدَ الله . قُلْ أتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بما لا يَعْلَمُ في السَّمواتِ ولا في الأرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْركونَ ﴾[4] وقال صاحب يس : ﴿ وما لِيَ لا أعْبُدُ الَّذي فَطَرَني وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أأتَّخِذُ مِنْ دونِهِ آلِهَةً إنْ يُرِدْن الرَّحْمنُ بِضُرّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ولا يُنْقذُون * إنِّي إذاً لفي ضَلالٍ مُبينٍ * إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكم فَاسْمعون ﴾[5] .

الأصل الثاني : أن نعبده بما شرع على ألسنة رسله ، لا نعبده إلاَّ بواجب أو مستحب ، والمباح إذا قصد به الطاعة دخل في ذلك . والدعاء من جملة العبادات ، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم ـ مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب ـ كان مبتدعاً في الدين ، مشركاً برب العالمين ، مبتدعاً بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، فإن ذمَّ من خالفه وسعى في عقوبته كان ظالماً جاهلاً معتدياً ، وإن حكم بذلك فقد حكم بغير ما أنزل الله ، وكان حكمه منقوضاً بإجماع المسلمين ، وكان إلى أن يستتاب من هذا الحكم ويعاقب عليه أحوجَ منه إلى أن ينفذ له هذا الحكم ويعان عليه ، وهذا كله مجمع عليه من المسلمين ، ليس فيه خلاف لا بين الأئمة الأربعة ولا غيرهم .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٩) .
(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٦٥) .
(٣) سورة الرعد ، الآية : (١٦) .
(٤) سورة يونس ، الآية : (١٨) .
(٥) سورة يس ، الآيات : (٢٢ ـ ٢٥) .

وقد بُسط الكلام على هذه الأمور في مجلدات ، من جملتها مصنَّف ذكرنا فيه قواعد تتعلق بحكم الحكام وما يجوز لهم الحكم فيه وما لا يجوز . وهو مؤلف مفرد يتعلق بأحكام هذا الباب لا يحسن إيراد شيء من فصوله ها هنا ، لإفراد الكلام في هذا الموضع على قواعد التوحيد ومتعلقاته ، وسيأتي إيراد ما اختصر منه ، وحررت فصوله في ضمن أوراق مفردة يقف عليها المتأمل لمزيد الفائدة ومسيس الحاجة إلى معرفة هذا الأمر المهم . وبالله التوفيق .

* * *

[فتوى في التوسل والشفاعة] :

وكنت وأنا بالديار المصرية في سنة إحدى عشرة وسبعمائة قد استُفتيت عن التوسل بالنبي ﷺ ، فكتبت في ذلك جواباً مبسوطاً ، وقد أحببتُ إيراده هنا لما في ذلك من مزيد الفائدة ، فإن هذه القواعد ـ المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلوّ ـ كلَّما تنوَّع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نوراً على نور . والله المستعان .

وصورة السؤال : المسؤول من السادة العلماء أئمة الدين أن يبينوا ما يجوز وما لا يجوز من الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والصالحين .

وصورة الجواب : الحمد لله رب العالمين . أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك ، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة . ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين واستفاضت به السنن من أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته ، ويشفع أيضاً لعموم الخلق ، فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد ، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين ، لكن ما له فيها أفضل مما لغيره ، فإنه ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على ربه عزَّ وجلّ ، وله من الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين ما يضيق هذا الموضع عن بسطه ، ومن ذلك « المقام المحمود » الذي يغبطه به الأولون والآخرون . وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة ، منها في الصحيحين أحاديث متعددة ، وفي السنن والمسانيد مما يكثر عدده .

وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فزعموا أن الشفاعة إنما هي للمؤمنين خاصة في بعض الدرجات ، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقاً .

وأجمعوا على أن الصحابة كانوا يستشفعون به ويتوسلون به في حياته بحضرته ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : « اللهمَّ إنَّا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » فيسقون . وفي البخاري أيضاً عن ابن عمر أنه قال : ربما ذكرت قول الشاعر ـ وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقي ، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب[1] :

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه ... ثِمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

والتوسل بالنبي ﷺ الذي ذكره عمر بن الخطاب قد جاء مفسراً في سائر أحاديث الاستسقاء ، وهو من جنس الاستشفاع به ، وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، ويطلب من الله أن يقبل دعاءه وشفاعته ، ونحن نقدمه بين أيدينا شافعاً وسائلاً لنا ، بأبي هو وأمي ﷺ .

وكذلك معاوية بن أبي سفيان ـ لما أجدب الناس بالشام ـ استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي فقال : اللهمَّ إنا نستشفع ـ أو نتوسل ـ بخيارنا . يا يزيد ! ارفع يديك ، فرفع يديه ودعا ، ودعا الناس حتى سقوا . ولهذا قال العلماء : يستحبُّ أن يستسقى بأهل الدين والصلاح ، وإذا كانوا من أهل بيت رسول الله ﷺ فهو أحسن .

وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقته التوسل بدعائه ، فإنه كان يدعو للمتوسل به المستشفع به والناس يدعون معه ، كما أن المسلمين لما أجدبوا على عهد النبي ﷺ دخل عليه أعرابي فقال : يا رسول الله هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادعُ الله يغيثنا . فرفع النبي ﷺ يديه وقال : « **اللهمَّ أغثنا ، اللهمَّ أغثنا** » وما في السماء قَزَعة[2]، فنشأت سحابة من جهة البحر فمطروا أسبوعاً لا يرون فيه الشمس، حتى دخل الأعرابي ـ أو غيره ـ فقال : يا رسول الله انقطعت السبل ، وتهدم البنيان ، فادع الله يكشفها عنا . فرفع يديه وقال : « **اللهمَّ حوالينا ولا علينا ، اللهمَّ على الآكام والظراب[3] ومنابت الشجر وبطون الأودية** » فانجابت المدينة عن كما ينجاب الثوب.

---

(١) أي يزخر بالماء .

(٢) القزع : قطع من السحاب رقيقة الواحدة : قزعة .

(٣) الظرب : قيل هو الجبل المنبسط ، وقيل هو الجبل الصغير أو الروابي الصغار .

والحديث مشهور في الصحيحين وغيرهما . وفي حديث آخر في سنن أبي داود وغيره أن رجلاً قال له : إنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . فسبح رسول الله ﷺ حتى رؤي ذلك في وجوه أصحابه . وقال : « ويحك أتدري ما الله ؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك » ، وهذا يبين أن معنى الاستشفاع بالشخص - في كلام النبي ﷺ وأصحابه - هو الاستشفاع بدعائه وشفاعته ، ليس هو السؤال بذاته ، فإنه لو كان هذا السؤال بذاته لكان سؤال الخلق بالله تعالى أولى من سؤال الله بالخلق ، ولكن لما كان معناه هو الأول ، أنكر النبي ﷺ قوله : « نستشفع بالله عليك » ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله ، لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه أن يقضي حاجة الطالب ، والله تعالى لا يسأل أحداً من عباده أن يقضي حوائج خلقه ، وإن كان بعض الشعراء ذكر استشفاعه بالله تعالى في مثل قوله :

شفيعي إليك الله لا ربَّ غيره وليس إلى ردِّ الشفيع سبيلُ

وكذلك بعض الاتحادية[1] ذكر أنه استشفع بالله سبحانه إلى النبي ﷺ وكلاهما خطأ وضلال ، بل هو سبحانه المسؤول المدعو الذي يسأله كل من في السموات والأرض ، ولكن هو تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه ، وكل من وجبت طاعته من المخلوقين فإنما وجبت لأن ذلك طاعة لله تعالى ، فالرسل يبلغون عن الله أمره ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن بايعهم فقد بايع الله . قال الله تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقدْ أطاعَ الله ﴾[3] . وأولو الأمر من أهل العلم وأهل الإمارة إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله ، قال ﷺ في الحديث الصحيح : « على المرء المسلم السمع والطاعة في عسره ويسره ومَنْشَطه ومَكْرَهه ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة » وقال ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وأما الشافع فسائل لا تجب طاعته في الشفاعة وإن كان عظيماً ، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سألَ بريرة أن تمسك زوجها ولا تفارقه لما أعتقت ، وخيرها

---

(١) أي من يقولون أن واجب الوجود وجائز الوجود واحد .

(٢) سورة النساء ، الآية : (٦٤) .

(٣) سورة النساء ، الآية : (٨٠) .

النبي ﷺ فاختارت فراقه ، وكان زوجها يحبها فجعل يبكي ، فسألها النبي ﷺ أن تمسكه فقالت : أتأمرني ؟ فقال : « لا ! إنما أنا شافع » وإنما قالت « أتأمرني ؟ » وقال : « إنما أنا شافع » لما استقر عند المسلمين أن طاعة أمره واجبة بخلاف شفاعته ، فإنه لا يجب قبول شفاعته ، ولهذا لم يلمها النبي ﷺ على ترك قبول شفاعته ، فشفاعة غيره من الخلق أولى أن لا يجب قبولها ، والخالق جل جلاله أمرُه أعلى وأجل من أن يكون شافعاً إلى مخلوق ، بل هو سبحانه أعلى شأناً من أن يشفع أحد عنده إلّا بإذنه . قال تعالى : ﴿ وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبادٌ مُكرمُون * لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وهُمْ بأمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ ما بَيْنَ أيديهم وما خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعون إلاَّ لِمَن ارْتَضى ، وهُمْ من خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * ومَنْ يَقُلْ مِنْهُم إنِّي إلهٌ مِنْ دُونِهِ فذلك نَجْزِيه جَهَنَّمَ ، كذَلِكَ نَجْزِي الظَّالمين ﴾[1] . ودلَّ الحديث المتقدم على أن الرسول ﷺ يُستشفَع به إلى الله عز وجل ، أي يطلب منه الشفاعة في الدنيا والآخرة ، فأما في الآخرة فيطلب منه الخلق الشفاعة في أن يقضي الله بينهم ، وفي أن يدخلوا الجنة ، ويشفع في أهل الكبائر من أمته ، ويشفع في بعض من يستحق النار أن لا يدخلها ، ويشفع في بعض من دخلها أن يخرج منها .

ولا نزاع بين جماهير الأئمة أنه يجوز أن يشفع لأهل الطاعة المستحقين الثواب ، ولكن كثيراً من أهل البدع والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، فقالوا : لا يشفع لأهل الكبائر . بناء على أن أهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها .

ومذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجماعة أنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أحد . بل يخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان ، لكن هذا الاستسقاء والاستشفاع والتوسل به وبغيره كان يكون في حياته ، بمعنى أنهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهم ، فكان توسلهم بدعائه . والاستشفاعُ به طلبُ شفاعته ، والشفاعةُ دعاء .

فأما التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بعد موته ـ مثل الأقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم ـ فليس هذا مشهوراً عند الصحابة

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيات : (٢٦ ـ ٢٩) .

والتابعين ، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حياً كالعباس وكيزيد بن الأسود ، ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي ﷺ لا عند قبره ولا غير قبره ، بل عدلوا إلى البدل كالعباس وكيزيد ، بل كانوا يصلون عليه في دعائهم ، وقد قال عمر : اللهمَّ إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . فجعلوا هذا بدلاً عن ذاك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه ، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره ويتوسلوا هناك ويقولوا في دعائهم بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به ، فيقولون : نسأل أو عليك بنبيك ، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس .

وروى بعض الجهال عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سألتم الله فاسألوا بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم » . وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث ، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث ، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين ، وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله ، فقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنُوا لا تَكونوا كالَّذينَ آذَوْا مُوسى فبرَّأه الله مِما قالوا وكانَ عندَ الله وَجِيهاً ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إذْ قالَتِ الملائِكَةُ يا مَرْيَمُ إنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسيحُ عيسَى ابْنُ مريمَ وجيهاً في الدُّنيا والآخِرَةِ ومن المُقرَّبين ﴾[2] فإذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عزَّ وجلَّ فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ؟ وصاحب الكوثر والحوض المورود الذي آنيته عدد نجوم السماء ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ؟ وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم وأولو العزم ، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ويتقدم هو إليها وهو صاحب اللواء ، آدم ومن دونه تحت لوائه ، وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل ، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، ذو الجاه العظيم ﷺ .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : (٦٩) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : (٤٥) .

ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق، فإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه: ﴿ إنْ كُلُّ من في السَّموات والأرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحمنَ عبداً * لقد أحصاهُم وَعَدَّهُم عَدّاً ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسيحُ أنْ يكونَ عَبْداً لله ولا الملائكةُ المُقرَّبونَ، ومن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عبادَتِه ويَسْتَكبِر فَسَيحْشُرُهُم إليه جميعاً * فأمَّا الَّذين آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ فَيُوَفِّيهم أُجُورَهُمْ ويَزيدُهُمْ من فَضْلِهِ، وأمَّا الَّذينَ اسْتَنكفُوا واسْتَكبروا فَيُعذِّبُهم عذاباً أليماً ولا يَجِدون لهم من دُونِ الله وليّاً ولا نصيراً ﴾[2].

والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب، والله تعالى لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ ادْعوا الَّذينَ زَعَمْتُمْ من دُونِ اللَّهِ لا يَمْلكونَ مِثقالَ ذَرَّة في السَّموات ولا في الأرضِ وما لهُم فيهما من شِرْكٍ وما لهُ منهُم من ظَهيرٍ * ولا تَنْفَعُ الشَّفاعة عندَهُ إلاَّ لمن أذِنَ له ﴾[3].

وقد استفاضت الأحاديث عن النبي ﷺ أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من يفعل ذلك، ونهى عن اتخاذ قبره عيداً؛ وذلك لأن أول ما حدث الشرك في بني آدم كان في قوم نوح. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وقد قال الله تعالى عن قومه أنهم قالوا: ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ ويَعوقَ ونَسْراً وقد أضَلُّوا كثيراً ﴾[4] قال غير واحد من السلف: هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلمَّا طال عليهم الأمد عبدوهم. وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس، وذكر أن هذه الآلهة صارت إلى العرب، وسمى قبائل العرب الذين كانت فيهم هذه الأصنام.

فلمَّا علمت الصحابة رضوان الله عليهم أن النبي ﷺ حسم مادة الشرك بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد وإن كان المصلي يصلي لله عزَّ وجلَّ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس لئلا يشابه المصلين للشمس وإن كان المصلي إنما يصلي لله

---

(1) سورة مريم، الآيتان: (٩٣ و ٩٤).
(2) سورة النساء، الآيتان: (١٧٢ و ١٧٣).
(3) سورة سبأ، الآيتان: (٢٢ و ٢٣).
(4) سورة نوح، الآيتان: (٢٣ و ٢٤).

تعالى . وكان الذي يقصد الدعاء بالميت أو عند قبره أقرب إلى الشرك من الذي لا يقصد إلاَّ الصلاة لله عزَّ وجلَّ ـ لم يكونوا يفعلون ذلك .

وكذلك علم الصحابة أن التوسل به إنما هو التوسل بالإيمان به وطاعته ومحبته وموالاته ، والتوسل بدعائه وشفاعته ، فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا . فلما لم يفعل الصحابة رضوان الله عليهم شيئاً من ذلك ، ولا دعوا بمثل هذه الأدعية ـ وهم أعلم منا ، وأعلم بما يحب الله ورسوله ، وأعلم بما أمر الله به ورسوله من الأدعية ، وما هو أقرب إلى الإجابة منا ، بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي ﷺ دلَّ عُـدُولهم عن التوسل بالأفضل إلى التوسل بالمفضول أن التوسل المشروع بالأفضل لم يكن ممكناً .

وقد قال ﷺ : « **اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » رواه مالك في موطئه ورواه غيره ، وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني** » وفي الصحيحين أنه قال في مرض موته : « **لعن الله اليهود النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » يحذِّر ما فعلوا . قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً . وفي صحيح مسلم عن جندب أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس : « **إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً ، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك** » وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله** » .

وقد روى الترمذي حديثاً صحيحاً عن النبي ﷺ أنه علَّم رجلاً أن يدعو فيقول : « **اللهمَّ إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد يا رسول الله ! إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي ، اللهمَّ شفِّعه فيَّ** » . وروى النسائي نحو هذا الدعاء . وفي الترمذي وابن ماجة عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادعُ الله يعافيني فقال : إن شئت دعوتُ ، وإن شئت صبرتَ ، فهو خير لك . فقال : فادْعُهْ . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « **اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا رسول الله محمد !**

إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى ، اللهمَّ فشفِّعه فيَّ » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه النسائي عن عثمان بن حنيف ولفظه أن رجلاً أعمى قال : يا رسول الله ! ادعُ الله أن يكشف عن بصري . قال : « **فانطلقْ فتوضأ ثم صلِّ ركعتين ثم قل : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد ! إني أتوجه بك إلى ربي أن يكشف عن بصري ، اللهمَّ فشفِّعه فيَّ** » قال : فرجع وقد كشف الله عن بصره . وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا روح حدثنا شعبة عن عمير بن يزيد الخطمي المديني قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ! ادعُ الله أن يعافيني فقال : « **إن شئتَ أخرتَ ذلك فهو خير لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك** » قال : لا ، بل ادعُ الله لي ، فأمره أن يتوضأ وأن يصلي ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء : اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد : إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى ، اللهمَّ فشفِّعني فيه وشفِّعه فيَّ . قال : ففعل الرجل فبرأ .

فهذا الحديث فيه التوسل به إلى الله في الدعاء ، فمن الناس من يقول : هذا يقتضي جواز التوسل به مطلقاً حياً وميتاً . وهذا يحتج به من يتوسل بذاته بعد موته وفي مغيبه ، ويظن هؤلاء أن توسل الأعمى والصحابة في حياته كان بمعنى الإقسام به على الله أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته أن يقضي حوائجهم ، ويظنون أن التوسل به لا يحتاج إلى أن يدعو هو لهم ولا إلى أن يطيعوه ، فسواء عند هؤلاء دعا الرسول لهم أو لم يدع ، الجميع عندهم توسل به . وسواء أطاعوه أو لم يطيعوه ، ويظنون أن الله يقضي حاجة هذا الذي توسل به بزعمهم ولم يدع له الرسول ، كما يقضي حاجة هذا الذي توسل بدعائه ودعا له الرسول ﷺ ، إذ كلاهما متوسل به عندهم ، ويظنون أن كل من سأل الله تعالى بالنبي ﷺ فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى ، وأن ما أمر به الأعمى مشروع لهم . وقول هؤلاء باطل شرعاً وقَدَراً ، فلا هم موافقون لشرع الله ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله .

ومن الناس من يقول : هذه قضية عين يثبت الحكم في نظائرها التي تشبهها في مناط الحكم ، لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا مماثل لها . والفرق ثابت شرعاً وقدراً بين من دعا له النبي ﷺ وبين من لم يدعُ له ، ولا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر ، وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ فلهذا قال في دعائه : « **اللهمَّ فشفعه**

فيَّ » . فعلم أنه شفيع فيه ، ولفظه : « إن شئتَ صبرتَ وإن شئت دعوتُ لك » فقال : ادعُ لي . فهو طلبَ من النبي ﷺ أن يدعو له ، فأمره النبي ﷺ أن يصلي ويدعو هو أيضاً لنفسه ويقول في دعائه « اللهم فشفعه فيَّ » فدلَّ ذلك على أن معنى قوله : « **أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد** » أي بدعائه وشفاعته كما قال عمر : « اللهمَّ إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا » . فالحديثان معناهما واحد ، فهو ﷺ علَّم رجلاً أن يتوسل به في حياته ، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا .

ثم إنهم بعد موته كانوا يتوسلون بغيره بدلاً عنه . فلو كان التوسل به حياً وميتاً سواء ، والمتوسل به الذي دعا له الرسول كمن لم يدعُ له الرسول ، لم يعدلوا عن التوسل به ـ وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وأقربهم إليه وسيلة ـ إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله . وكذلك لو كان أعمى توسل به ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى ، لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى ، فعدولهم عن هذا إلى هذا ـ مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله ، وبحقوق الله ورسوله ، وما يشرع من الدعاء وينفع ، وما لم يشرع ولا ينفع ، وما يكون أنفع من غيره ، وهم في وقت ضرورة مخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات ، وتيسير العسير ، وإنزال الغيث بكل طريق ممكن ـ دليلٌ على أن المشروع ما سألوه دون ما تركوه .

ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستقاء ما فعلوه دون ما تركوه ، وذلك أن التوسل به حياً هو من جنس مسألته أن يدعو لهم ، وهذا مشروع . فما زال المسلمون يسألون رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم . وأما بعد موته ، فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء ، لا عند قبره ولا عند غير قبره ، كما يفعله كثير من الناس ، عند قبور الصالحين ، يسأل أحدهم حاجته ، أو يقسم على الله به ونحو ذلك وإن كان قد روي في ذلك حكايات عن بعض المتأخرين .

بل طلب الدعاء مشروع من كل مؤمن لكل مؤمن ، حتى قال رسول الله ﷺ لعمر لما استأذنه في العمرة : « **لا تنسنا يا أخي من دعائك** » ـ إن صح الحديث ـ وحتى أمر النبي ﷺ أن يطلب من أويس القرني أن يستغفر للطالب وإن كان الطالب أفضل من أويس بكثير ، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « إذا سمعتم

المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا عليَّ فإنه من صلَّى عليَّ مرة صلَّى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّتْ عليه شفاعتي يوم القيامة » مع أن طلبه من أمته الدعاء ليس هو طلب حاجة من المخلوق ، بل هو تعليم لأمته ما ينتفعون به في دينهم ، وبسبب ذلك التعليم والعمل بما علَّمهم يعظم الله أجره ، فإنا إذا صلينا عليه مرة صلَّى الله علينا عشراً ، وإذا سألنا الله له الوسيلة ، حلت علينا شفاعته يوم القيامة .

وكل ثواب يحصل لنا على أعمالنا فله مثل أجرنا من غير أن ينقص من أجرنا شيء ، فإنه ﷺ قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » وهو الذي دعا أمته إلى كل خير ، وكل خير تعمله أمته له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ولهذا لم يكن الصحابة والسلف يهدون إليه ثواب أعمالهم ولا يحجون عنه ولا يتصدقون ولا يقرءون القرآن ويهدون له ، لأن كل ما يعمله المسلمون من صلاة وصيام وحج وصدقة وقراءة له ﷺ مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، بخلاف الوالدين ، فليس كل ما عمله المسلم من الخير يكون لوالديه مثل أجره ، ولهذا يهدي الثواب لوالديه وغيرهما .

ومعلوم أن الرسول ﷺ مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[1] فهو ﷺ لا يرغب إلى غير الله ، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء أن يطلب من أحد أن يرقيه ، والرُّقية من نوع الدعاء ، وكان هو ﷺ يرقي نفسه وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يرقيه ، ورواية من روى في هذا « لا يرقون » ضعيفه غلط . فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه ، فإن من لا يسأل الناس ـ بل لا يسأل إلا الله ـ أفضل ممن يسأل الناس ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم .

---

(١) سورة القدر ، الآيتان : (٧ و ٨) .

ودعاء الغائب للغائب ، أعظم إجابة من دعاء الحاضر ، لأنه أكمل إخلاصاً وأبعد عن الشرك ، فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه ، إلى دعاء من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر ؟ وفي الحديث : « أعظم الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب » . وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكاً كلما دعا لأخيه بدعوة ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » وذلك أن المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه ، والمخلوق قادر على دعاء الله ومسألته ، فلهذا كان طلب الدعاء جائزاً ، كما يطلب منه الإعانة بما يقدر عليه والأفعال التي يقدر عليها .

فأما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه ، لا يطلب ذلك لا من الملائكة ، ولا من الأنبياء ولا من غيرهم . ولا يجوز أن يقال لغير الله : اغفر لي ، واسقنا الغيث ، وانصرنا على القوم الكافرين ، أو اهد قلوبنا ، ونحو ذلك . ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال الصدِّيق : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فجاءوا إليه فقال : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله » وهذا في الاستعانة مثل ذلك .

فأما ما يقدر عليه البشر ، فليس من هذا الباب وقد قال سبحانه : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[1] وفي دعاء موسى عليه السلام : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وإليك المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، لا حول ولا قوة إلا بك » . وقال أبو يزيد البسطامي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وقال أبو عبد الله القرشي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾[2] .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : (٩) .
(٢) سورة الإسراء ، الآيتان : (٥٦ و ٥٧) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي ، يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ويتقربون إليّ كما يتقربون إليّ . فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء ، مع إخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم ، وكذلك الأنبياء والصالحون ، وإن كانوا أحياء في قبورهم ، وإن قدّر أنهم يَدعون للأحياء وإن وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى . بخلاف الطلب من أحدهم في حياته ، فإنه لا يفضي إلى الشرك ، ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكوني ، فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ، بخلاف سؤال أحدهم في حياته فإنه يشرع إجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم .

وقال تعالى : ﴿ ما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَه اللَّهُ الْكِتابَ وَالحُكْمَ والنُّبُوَّة ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي من دُونَ اللَّهَ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأْمُركُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الملائِكَةُ والنَّبِيينَ أَرْباباً ، أَيَأْمُرُكُمْ بالكُفرِ بَعْدَ إذْ أَنْتُم مُسْلِمُون ﴾[1] فبين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ مثقالَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ وما لَهُمْ فِيهما مِنْ شِرْكٍ وما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِير * ولا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إلاَّ لمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ مَنْ ذا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذنه ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ ما مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذنِهِ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وليٍّ وَلاَ شَفِيع ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُون هؤلاء شُفَعاؤنَا عِنْدَ الله ، قُلْ أَتُنَبِّئُون الله بِما لا يَعْلَمُ في السَّمٰوات ولا في الأرضِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ وقال تعالى عن صاحب

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : (٧٩ و ٨٠) .
(٢) سورة سبأ ، الآيتان : (٢٢ و ٢٣) .
(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٥) .
(٤) سورة يونس ، الآية : (٣) .
(٥) سورة السجدة ، الآية : (٤) .

يس : ﴿ وما لِيَ لا أعْبُدُ الَّذي فِطرَني وَإليه تُرْجَعُون * أأتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إنْ يُرِدنْ الرَّحمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيئاً وَلاَ يُنْقِذُون إنِّي إذاً لَفِي ضَلالٍ مبين * إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فاسْمَعُون ﴾(٢) .

فالشفاعة نوعان : أحدهما الشفاعة التي نفاها الله تعالى وأثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة ، والثاني : أن يشفع الشفيع بإذن الله . وهذه التي أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ، ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتي ويسجد . قال : « فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن فيقال : أي محمد ، ارفع رأسك وقل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تُشَفَّع » فإذا أذن له في الشفاعة شفع ﷺ .

قال أهل هذا القول : ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به ـ بمعنى أن يكون هو داعياً للمتوسل به ـ أن يشرع ذلك في مغيبه وبعد موته ، مع أنه هو لم يدعُ للمتوسل به ، بل المتوسل به أقسم به أو سأل بذاته ، مع كون الصحابة فرَّقوا بين الأمرين وذلك لأنه في حياته يدعو هو لمن توسل به ، ودعاؤه هو لله سبحانه أفضل دعاء الخلق ، فهو أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق لمخلوق ، فكيف يقاس هذا بمن لم يدعُ له الرسول ولم يشفع له ؟ ومَن سوَّى بين من دعا له الرسول وبين من لم يدع له الرسول ، وجعل هذا التوسل كهذا التوسل ، فهو من أضل الناس .

وأيضاً فإنه ليس في طلب الدعاء منه ، ودعائه هو ، والتوسل بدعائه ضرر ، بل هو خير بلا شر ، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة ، فإن أحداً من الأنبياء عليهم السلام لم يُعبَد في حياته بحضوره ، فإنه يَنهى من يعبده ويشرك به ولو كان شركاً أصغر ، كما نهى النبي ﷺ من سجد له عن السجود له ، وكما قال : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد » . وأمثال ذلك .

وأما بعد موته ، فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح والعزير وغيرهما عند قبورهم وغير قبورهم . ولهذا قال النبي ﷺ : « **لا تطروني كما أطرت النصارى**

---

(١) سورة يونس ، الآية : (١٨) .
(٢) سورة يس ، الآيات : (٢٢ ـ ٢٥) .

عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » أخرجاه في الصحيحين وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد » وقال : « لعَنَ الله اليهودَ والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذِّر ما فعلوا .

وبالجملة فمعَنا أصلان عظيمان ، أحدهما : أن لا نعبد إلا الله . والثاني : أن لا نعبده إلا بما شرع ، لا نعبده بعبادة مبتدعة . وهذان الأصلان هما تحقيق « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » كما قال تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[1] قال الفضيل بن عياض : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وذلك تحقيق قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ، ولا يُشْرِكْ بِعِبادةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[2] .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كلمة صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَم يَأْذَن بِهِ اللَّهُ؟ ﴾[3] .

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ » . وفي لفظ في الصحيح : « من عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدّ » وفي الصحيح وغيره أيضاً يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، وهو كله للذي أشرك » ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف[4] كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبّل الحجر الأسود وقال : « والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك » ، والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته ، وموالاته ومحبته ، وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إلينا مما سواهما ، وضمن لنا بطاعته

---

(١) سورة هود ، الآية : (٧) .

(٢) سورة الكهف ، الآية : (١١٠) . (٣) سورة الشورى ، الآية : (٢١) .

(٤) أي أن الأحكام تبنى على النصوص لا على الرأي .

ومحبته محبة الله وكرامته . فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[3] ، وأمثال ذلك في القرآن كثير .

ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة ، وجاءت به الشريعة ، ودل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الأمة ، وما علمه قال به ، وما لم يعلمه أمسك عليه ، ولا يقفو ما ليس له به علم ، ولا يقول على ما لم يعلم ، فإن الله تعالى قد حرّم ذلك كله . وقد جاء في الأحاديث النبوية ذكر ما سأل الله تعالى به ، كقوله ﷺ : « **اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، يا حيُّ ، يا قيوم** » . رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه .

وقد اتفق العلماء على أنه لا ينعقد اليمين بغير الله تعالى ، وهو الحلف بالمخلوقات ، فلو حلف بالكعبة ، أو بالملائكة ، أو بأحد من الشيوخ ، أو الملوك لم ينعقد يمينه ، ولا يشرع له ذلك ، بل ينهى عنه ، إما نهي تحريم ، وإما نهي تنزيه . ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت** » ، وفي الترمذي عنه ﷺ أنه قال : « **من حلف بغير الله فقد أشرك** »[4] ولم يقل أحد من العلماء المتقدمين إنه ينعقد اليمين بأحد من الخلق ، إلا في نبينا ﷺ ، فإن عند أحمد روايتين في أنه ينعقد اليمين به ، وقد طرد بعض أصحابه ـ كابن عقيل ـ الخلاف في سائر الأنبياء ، وهذا ضعيف . وأصل القول بانعقاد اليمين بالنبي ضعيف شاذ ، ولم يقل به أحد من العلماء فيما نعلم ، والذي عليه الجمهور كمالك والشافعي وأبي حنيفة أنه لا ينعقد اليمين به ، كإحدى الروايتين عن أحمد ، وهذا هو الصحيح .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٣١) .

(٢) سورة النور ، الآية : (٥٤) . (٣) سورة النساء ، الآية : (١٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب النذور والإيمان باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (٤/ ٩٤) برقم ١٥٣٥ وقال : هذا حديث حسن ، وفسر هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن قوله : فقد كفر أو أشرك على التغليظ ، والحجة في ذلك حديث ابن عمر أن النبي ﷺ سمع عمر يقول : وأبي وأبي ، فقال : « **ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم** » . وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه

وكذلك الاستعاذة بالمخلوقات ، بل إنما يستعاذ بالخالق تعالى وأسمائه وصفاته ، ولهذا احتج السلف ـ كأحمد وغيره ـ على أن كلام الله غير مخلوق فيما احتجوا به بقول النبي ﷺ : « أعوذ بكلمات الله التامات » قالوا : فقد استعاذ بها ، ولا ولا يستعاذ بمخلوق . وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركاً » فنهى عن الرقى التي فيها شرك ، كالتي فيها استعاذة بالجن كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الجِنِّ فَزادوهُمْ رَهَقاً ﴾[1] ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والأقسام التي يستعملها بعض الناس في حق المصروع وغيره ، التي تتضمن الشرك ، بل نهوا عن كل ما لا يعرف معناه من ذلك خشية أن يكون فيه شرك ، بخلاف ما كان من الرقى المشروعة فإنه جائز . فإذاً لا يجوز أن يقسم لا قسماً مطلقاً ، ولا قسماً على غيره إلا بالله عز وجل .

والسائل لله بغير الله إما أن يكون مقسماً عليه ، وإما أن يكون طالباً بذلك السبب : كما توسل الثلاثة في الغار بأعمالهم ، وكما يتوسل بدعاء النبي ﷺ والصالحين . فإن كان إقساماً على الله بغيره فهذا لا يجوز ، وإن كان سؤالاً بسبب يقتضي المطلوب ، كالسؤال بالأعمال التي فيها طاعة الله ورسوله ، مثل السؤال بالإيمان بالرسول ، وصحبته ، وموالاته ونحو ذلك فهذا جائز . وإن كان سؤالاً بمجرد ذات الأنبياء والصالحين فهذا غير مشروع « وقد نهى عنه غير واحد من العلماء وقالوا : إنه لا يجوز ، ورخص فيه بعضهم والأول أرجح كما تقدم ، وهو سؤال بسبب لا يفضي حصول المطلوب ، بخلاف من كان طالباً بالسبب المقتضي لحصول المطلوب ، كالطلب منه سبحانه بدعاء الصالحين ، وبالأعمال الصالحة ، فهذا جائز ، لأن دعاء الصالحين سبب لثواب الله لنا ، وإذا توسلنا بدعائهم وأعمالنا كنا متوسلين إليه تعالى بوسيلة ، كما قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيهِ الوَسيلَةَ ﴾[2] والوسيلة هي الأعمال الصالحة ، وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الوَسيلَةَ ﴾[3] .

قال : « من قال في حلفه واللات والعزى فليقل : لا إله إلاّ الله » .

(١) سورة الجن ، الآية : (٦) .

(٢) سورة المائدة ، الآية : (٣٥) .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : (٥٧) .

وأما إذا لم نتوسل إليه سبحانه بدعائهم ، ولا بأعمالنا . ولكن توسلنا بنفس ذواتهم لم يكن نفس ذواتهم سبباً يقتضي إجابة دعائنا ، فكنا متوسلين بغير وسيلة ، ولهذا لم يكن هذا منقولاً عن النبي ﷺ نقلاً صحيحاً ، ولا مشهوراً عن السلف . وقد نقل في (منسك المروذي) عن أحمد دعاء فيه سؤال بالنبي ﷺ ، وهذا قد يخرَّج على إحدى الروايتين عنه في جواز القسم به ، وأعظم العلماء على النهي في الأمرين . ولا ريب أن لهم عند الله الجاه العظيم ـ كما قال تعالى في موسى وعيسى عليهما السلام ، وقد تقدم ذكر ذلك ـ لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات أمر يعود نفعة إليهم ، ونحن ننتفع من ذدلك باتباعنا لهم ومحبتنا لهم ، فإذا توسلنا إلى الله تعالى بإيماننا بنبيه ومحبته وموالاته واتباع سنته فهذا من أعظم الوسائل ، وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته فلا يجوز أن يكون وسيلة ، فالمتوسل بالمخلوق إذا لم يتوسل بإيمان المتوسل به ولا بطاعته ، فبأي شيء يتوسل ؟ والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة فأما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة له عند ذلك ، مثل أن يقال لأبي الرجل أو صديقه أو من يلزم عليه : اشفع لنا عنده ، وهذا جائز . وإما أن يقسم عليه ، والإقسام على الله تعالى بالمخلوقين لا يجوز ، ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق . وإما أن يسأل بسبب يقتضي المطلوب ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاؤُلُونَ بِهِ والأَرحام ﴾[1] وسيأتي بيان ذلك .

وقد تبين أن الإقسام على الله بغيره لا يجوز ، ولا يجوز أن يقسم بمخلوق أصلاً ، وأما التوسل إليه بشفاعة المأذون لهم فجائز ، والأعمى كان قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو كما طلب الصحابة منه الاستسقاء ، وقوله : « أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » أي بدعائه وشفاعته لي ، ولهذا تمام الحديث : « اللهم فشفّعه فيَّ » فالذي في الحديث متفق على جوازه ، وليس هو مما نحن فيه . وقد قال تعالى : ﴿ وَاتَّقوا اللَّهَ تَسآءَلُونَ بِهِ والأَرحامَ ﴾ فعلى قراءة الجمهور بالنصب إنما يسألون بالله وحده ، لا بالرحم . وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله ، وتعاهدهم بالله . وأما على قراءة الخفض ، فقد قال طائفة من السلف : هو قولهم أسألك بالله وبالرحم ، وهذا إخبار عن سؤالهم ، وقد يقال إنه ليس بدليل على جوازه ، فإن كان دليلاً على جوازه ، فمعنى قوله أسألك بالرحم ليس إقساماً

(١) سورة النساء ، الآية : (١) .

بالرحم ـ والقسم هنا لا يسوغ ـ لكن بسبب الرحم ، أي الرحم توجب لأصحابها بعضهم على بعض حقوقاً ، كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة ، وكسؤالنا بدعاء النبي ﷺ وشفاعته . ومن هذا الباب ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن ابن أخيه عبد الله بن جعفر كان إذا سأله جعفر أعطاه ، وليس هذا من باب الإقسام ، فإن الإقسام بغير جعفر أعظم ، بل من باب حق الرحم ، لأن الله إنما وجب بسبب جعفر ، وجعفر حقه على عليّ .

ومن هذا الباب ، الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في دعاء الخارج إلى الصلاة : « **اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي هذا ، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ، ولكن خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك . أسألك أن تنقذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت** » . وهذا الحديث في إسناده عطية العوفي وفيه ضعف ، فإن كان من كلام النبي ﷺ فهو من هذا الباب لوجهين :

(أحدهما) لأن فيه السؤال لله تعالى بحق السائلين ، وبحق الماشين في طاعته ، وحق السائلين أن يجيبهم ، وحق الماشين أن يثيبهم ، وهذا حق أوجبه الله تعالى ، وليس للمخلوق أن يوجب على الخالق تعالى شيئاً . ومنه قوله تعالى : ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصرُ المؤمِنِينَ** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **وَعْداً عَلَيْه حَقّاً في التَّوراةِ والإنْجيلِ وَالقُرآنِ وَمَنْ أوفَى بِعَهْدِهِ مَنَ الله** ﴾[3] وفي الصحيح في حديث معاذ : « حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم » . وفي الصحيح عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرّمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً . فلا تظالموا » . وإذا كان حق السائلين والعابدين له هو الإجابة والإثابة بذلك فذاك سؤال لله نافعاً له كالاستعاذة بنحو ذلك في قوله ﷺ : « **أعوذ برضاك من سَخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما على نفسك** » . فالاستعاذة بمعافاته التي هي فعله ، كالسؤال بإثابته التي هي فعله .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (٦٤) .

(٢) سورة الروم ، الآية : (٤٧) . (٣) سورة التوبة ، الآية : (١١١) .

(الوجه الثاني) أن الدعاء له سبحانه وتعالى والعمل له سبب بحصول مقصود العبد ، فهو كالتوسل بدعاء النبي ﷺ والصالحين من أمته ، وقد تقدم أن الدعاء بالنبي ﷺ والصالح إما أن يكون إقساماً به ، أو سبباً به ، فإن كان قوله : « **بحق السائلين عليك** » إقساماً فلا يقسم على الله إلا به ، وإن كان سبباً فهو سبب بما جعله هو سبحانه سبباً ، وهو دعاؤه وعبادته . فهذا كله يشبه بعضه بعضاً ، وليس في شيء من ذلك دعاء له بمخلوق من غير دعاء منه ، ولا عمل صالح منا .

وإذا قال السائل : أسألك بحق الملائكة ، أو بحق الأنبياء ، وحق الصالحين ـ ولا يقول لغيره عليك بحق هؤلاء ـ فإذا لم يجز له أن يحلف به ، ولا يقسم على مخلوق به ، فكيف يقسم على الخالق به ؟ وإن كان لا يقسم به ، وإنما يتسبب به فليس في مجرد ذوات هؤلاء سبب يوجب تحصيل مقصوده ، ولكن لا بد من سبب منه كالإيمان بالملائكة والأنبياء ، أو منهم كدعائهم . ولكن كثيراً من الناس تعوَّدوا ذلك ، كما تعودوا الحلف بهم ، حتى يقول أحدهم : وحقك على الله ، وحق هذه الشيبة على الله .

وإذا قال القائل : أسألك بحق فلان ، أو بجاهه . أي أسألك بإيماني به ، ومحبتي له ، وهذا من أعظم الوسائل . قيل : من قصد هذا المعنى ، فهو معنى صحيح ، لكن ليس هذا مقصود عامة هؤلاء ، فمن قال : أسألك بإيماني بك وبرسولك ونحو ذلك ، أو بإيماني برسولك ومحبتي له ونحو ذلك ، فقد أحسن في ذلك كما قال تعالى في دعاء المؤمنين : ﴿ رَبَّنا إننا سَمِعْنَا مُنادِياً يُنَادِي لِلإيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا وَكَفِّر عَنَّا سَيِّئَاتِنا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرار ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إنَّنا آمَنَّا فاغفر لنا ذُنُوبَنا وَقِنَا عَذَابَ النَّار ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ إنَّه كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فاغفر لَنَا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ رَبنا آمَنَّا بما أنزَلْتَ واتبَعنا الرسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِين ﴾[4] وكان ابن مسعود يقول : اللهم أمرتَني فأطعتُ ، ودعوتني فأجبت

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : (١٩٣) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٦٠) .
(٣) سورة الحج ، الآية : (١٠٩) .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : (٥٣) .

وهذا سحر فاغفر لي . ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر ، فأووا إلى الغار ، وانطبقت عليهم الصخرة ، ثم دعوا الله سبحانه بأعمالهم الصالحة ، ففرج عنهم وهو ما ثبت في الصحيحين .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا خالد بن خراش العجلاني وإسماعيل ابن إبراهيم ، قال حدثنا صالح المُري عن ثابت عن أنس قال : دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض ثقيل ، فلم نبرح حتى قبض ، فبسطنا عليه ثوبه ، وله أم عجوز كبيرة عند رأسه ، فالتفت إليها بعضنا وقال : يا هذه إحتسبي مصيبتك عند الله . فقالت : وما ذاك ، مات ابني ؟ قلنا : نعم . قالت : أحق ما تقولون ؟ قلنا : نعم . فمدت يديها إلى الله فقالت : اللهم إنك تعلم إني أسلمت وهاجرت إلى رسولك رجاء أن تعقبني عند كل شدة فرجاً ، فلا تحمل عليّ هذه المصيبة اليوم . قال : فكشفت الثوب عن وجهه فما برحنا حتى طعمنا معه وروى في كتاب الحلية لأبي نعيم أن داود قال : بحق آبائي عليك ، إبراهيم وإسحاق ويعقوب . فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ! أي حق لآبائك عليّ ؟ وهذا وإن لم يكن من الدلالة الشرعية فالإسرائيليات يعتضد بها ، ولا يعتمد عليها .

وقد مضت السنة أن الحي يطلب منه الدعاء كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه ، وأما المخلوق الغائب والميت ، فلا يطلب منه شيء . يحقق هذا الأمر أن التوسل به والتوجه به لفظ فيه إجمال وإشتراك بحسب الاصطلاح ، فمعناه في لغة الصحابة أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، فيكونون متوسلين ومتوجهين بدعائه وشفاعته . ودعاؤه وشفاعته ﷺ من أعظم الوسائل عند الله عز وجل . وأما في لغة كثير من الناس فمعناه أن يسأل الله تعالى ويقسم عليه بذاته .

والله تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات ، بل لا يقسم بها بحال ، فلا يقال : أقسمت عليك يا رب بملائكتك ، ولا بكعبتك ، ولا بعبادك الصالحين ، كما لا يجوز أن يقسم الرجل بهذه الأشياء ، بل إنما يقسم بالله تعالى بأسمائه وصفاته ، ولهذا كان السنة أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته فيقول : « أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلاّ أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وكذلك قوله : « اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من

كتابك ، وباسمك الأعظم ، وجدّك الأعلى ، وبكلماتك التامات » . مع أن هذا الدعاء الثالث ، في جواز الدعاء به قولان العلماء : قال الشيخ أبو الحسين القدوري في كتابه المسمى بشرح الكرخي : قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكرهه أن يقول : « بمعاقد العز من عرشك » أو « بحق خلقك » . وهو قول أبي يوسف ، قال أبو يوسف : « معقد العز من عرشه » هو الله ، فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول : « بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام » قال القدوري : المسألة بخلقه لا تجوز ، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق ، فلا يجوز - يعني وفاقاً - وهذا من أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما يقتضي المنع أن يسأل الله بغيره .

فإن قيل : الرب سبحانه وتعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وليس لنا أن نقسم عليه إلا به . فهلا قيل : يجوز أن يقسم عليه بمخلوقاته ، وأن لا يقسم على مخلوق إلا بالخالق تعالى؟ قيل: لأن إقسامه سبحانه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه وذكر آياته ، وإقسامنا نحن بذلك شرك إذا أقسمنا به لحض غيرنا أو لمنعه أو تصديق خبر أو تكذيبه . ومن قال لغيره : أسألك بكذا . فأما أن يكون مقسماً فهذا لا يجوز بغير الله تعالى ، والكفارة في هذا على المقسم ، لا على المقسَم عليه ، كما صرح بذلك أئمة الفقهاء . وإن لم يكن مقسِماً فهو من باب السؤال ، فهذا لا كفارة فيه على واحد منهما .

فتبين أن السائل لله بخلقه إما أن يكون حالفاً بمخلوق ، وذلك لا يجوز . وإما أن يكون سائلاً به ، وقد تقدم تفصيل ذلك . وإذا قال : « بالله افعل كذا » فلا كفارة فيه على واحد منهما ، وإذا قال : « أقسمت عليك بالله لتفعلن » أو « والله لتفعلن » فلم يبر قسمه لزمت الكفارةُ الحالف . والذي يدعو بصيغة السؤال فهو من باب السؤال به ، وأما إذا أقسم على الله تعالى مثل أن يقول : أقسمت عليك يا رب لتفعلن كذا ، كما كان يفعل البراء بن مالك وغيره من السلف ، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه» وفي الصحيح أنه قال ، لما قال أنس بن النضر : والذي بعثك بالحق لا يُكسر ثنيةُ الرُّبيع ، فقال النبي ﷺ : « يا أنس ، كتابُ الله القصاص » فعفا القوم ، فقال النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه » وهذا من باب الحلف بالله لتفعلن هذا الأمر ،

فهو إقسام عليه تعالى ، وليس إقساماً عليه بمخلوق .

وينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة ، فإن ذلك لا ريب في فضله وحسنه ، وأنه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وقد تقدم أن ما يذكره بعض العامة من قوله ﷺ : «إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهي»، حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب الحديث، وإنما المشروع الصلاة عليه في كل دعاء. ولهذا لما ذكر العلماء الدعاء في الاستسقاء وغيره ذكروا الصلاة عليه ، ولم يذكروا فيما شرع للمسلمين في هذه الحال التوسل به ، كما لم يذكر أحد من العلماء دعاء غير الله والاستعانة المطلقة بغيره في حال من الأحوال . وإن كان بينهما فرق فإن دعاء غير الله كفر ، ولهذا لم يُنقل دعاء أحد من الموتى والغائبين ـ لا الأنبياء ولا غيرهم ـ عن أحد من السلف وأئمة العلم ، وإنما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من أئمة العلم المجتهدين ، بخلاف قولهم : أسألك بجاه نبينا أو بحقه ، فإن هذا مما نقل عن بعض المتقدمين فعله ، ولم يكن مشهوراً بينهم ولا فيه سنة عن النبي ﷺ ، بل السنة تدلُّ على النهي عنه كما نقل ذلك عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما .

ورأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد بن عبد السلام[1] قال : لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله ﷺ، إن صح حديث الأعمى . فلم يعرف صحته . وقد تقدم أن هذا الحديث لا يدل إلا على التوسل بدعائه ، ليس من باب الإقسام بالمخلوق على الله تعالى ، ولا من باب السؤال بذات الرسول كما تقدم . والذين يتوسلون بذاته لقبول الدعاء وعدلوا عما أمروا به وشرع لهم ـ وهو من أنفع الأمور لهم ـ إلى ما ليس كذلك ، فإن الصلاة عليه من أعظم الوسائل التي بها يستجاب الدعاء ، وقد أمر الله بها .

[الصلاة على النبي ﷺ] :

والصلاة عليه في الدعاء هو الذي دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيما ﴾[2] وفي الصحيح عنه أنه قال : « من صلى عليَّ مرّة صلى الله عليه

(١) أي العز بن عبد السلام .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : (٥٦) .

عشرا » وعن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد الله ، ولم يصل على النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « عَجِل هذا! » ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد ربه ، ثم ليصل على النبي ، ثم ليدع بعده بما شاء » رواه أحمد وأبو داود ـ وهذا لفظه ـ والترمذي والنسائي . وقال الترمذي حديث صحيح . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإن من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة ، وفي سنن أبي داود والنسائي عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله ﷺ : « قل كما يقولون ، فإذا انتهت سل تُعطه » . وفي المسند عن جابر بن عبد الله قال : « من قال حين ينادي المنادي : اللهم رب هذه الدعوة القائمة والصلاة النافعة صل على محمد وارض عنه رضا لا سخط بعده . استجاب الله له دعوته » . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن .

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « ساعتان تُفتح فيهما أبواب السماء قلمَّا تُردُّ على داعٍ دعوتهُ : عند حصول النداء ، والصفّ في سبيل الله » رواه أبو داود . وفي المسند والترمذي وغيرهما عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربعُ الليل قام فقال : « يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة . جاء الموت بما فيه » . قال أبيّ : قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « ما شئت » قلت : الربع ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قلت : النصف ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قلت : الثلثين ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : « إذاً هذا يكفيك الله ما أهمَّك من أمر دنياك وآخرتك » وفي لفظ « إذاً تكفي همك ، ويغفر ذنبك » . وقول السائل : أجعل لك من صلاتي ؟ يعني من دعائي . فإن الصلاة في اللغة هي الدعاء . قال تعالى :

﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾[1] وقال النبي ﷺ : « اللهم صل على آل أبي أوفى » . وقالت امرأة : صلِّ عليَّ يا رسول الله وعلى زوجي . فقال : صلَّى الله عليك وعلى زوجك » . فيكون مقصود السائل : أي يا رسول الله إن لي دعاء أدعو به ، أستجلب به الخير ، وأستدفع به الشر ، فكم أجعل لك من الدعاء ، قال : « ما شئت » فلما انتهى إلى قوله : اجعل لك صلاتي كلها ؟ قال له : « إذاً تكفي همك ويغفر ذنبك » . وفي الرواية الأخرى « إذاً يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » ، وهذا غاية ما يدعو به الإنسان من جلب الخيرات ودفع المضرات ، فإن الدعاء فيه تحصيل المطلوب ، واندفاع المرهوب ، كما بسط ذلك في مواضعه .

وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية ، وأعرضوا عن الأدعية البدعية ، فينبغي اتباع ذلك . والمراتب في هذا الباب ثلاث :

إحداها : أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب ، سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول : يا سيدي فلان أغثني أو أنا أستجير بك أو أستغيث بك أو انصرني على عدوي . وأعظم من ذلك أن يقول : اغفر لي وتب عليَّ ، كما يفعله طائفة من الجهال المشركين . وأعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلي إليه ويرى الصلاة إليه أفضل من استقبال القبلة ، حتى يقول بعضهم : هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام ، وأعظم من ذلك أن يرى السفر إليه من جنس الحج حتى يقول إن السفر إليه مرات يعدل حجة ، وغلاتهم يقولون : الزيارة إليه مرة أفضل من حج البيت مرات متعددة . ونحو ذلك ، فهذا شرك بهم وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه .

الثانية : أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين : ادع الله لي ، أو ادع لنا ربك ، أو اسأل الله لنا . كما تقول النصارى لمريم وغيرها ، فهذا أيضاً لا يستريب عالم أنه جائز ، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة ، وإن كان السلام على أهل القبور جائزاً ومخاطبتهم جائزة كما أن النبي ﷺ يُعلِّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول قائلهم : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . يغفر الله لنا ولكم ، نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » وروى أبو عمر بن عبد البر عن

---

(١) سورة التوبة ، الآية : (١٠٣) .

النبي ﷺ أنه قال : « ما من رجل يمرُّ بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا ردَّ الله عليه روحه حتى يردَّ عليه السلام » . وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من مسلم يسلِّم عليَّ إلا ردَّ عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام » لكن ليس من المشروع أن يُطلبَ من الأموات لا دعاء ولا غيره .

وفي موطأ مالك أن ابن عمر كان يقول : « السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبه » ثم ينصرف . وعن عبد الله بن دينار قال : رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي على النبي ﷺ ، ويدعو لأبي بكر وعمر . وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم أنهم كانوا يسلمون على النبي ﷺ ، فإذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى ، لا يدعون مستقبلي الحجرة . وإن كان قد وقع في بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة ، فلم يذهب إلى ذلك إمام متَّبع في قوله : ولا من له في الأمة لسانُ صدق عام .

ومذهب الأئمة الأربعة ـ مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد ـ وغيرهم من أئمة الإسلام أن الرجل إذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة . واختلفوا في وقت السلام عليه فقال الثلاثة ـ مالك والشافعي وأحمد ـ: يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه ، وقال أبو حنيفة : لا يستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لا يستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم . ثم في مذهبه قولان : قيل : يستدبر الحجرة وقيل : يجعلها عن يساره . فهذا نزاعهم في وقت السلام ، وأما في وقت الدعاء فلم يتنازعوا في أنه إنما يستقبل القبلة لا الحجرة .

والحكاية التي تذكر عن مالك أنه قال للمنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال : « هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم » كذب على مالك لها إسناد معروف وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات في كتب أصحابه ، كما ذكره إسماعيل بن إسحاق القاضي وغيره ، مثل ما ذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لأنفسهم ، فأنكر مالك ذلك وذكر أنه من البدع التي لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وقال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قاله مالك ، فإن الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعادتهم ، ولو كان استقبال الحجرة عند الدعاء

مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك وكانوا أسبق إليه ممن بعدهم ، والداعي يدعو الله وحده ، وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه لله تعالى ، كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله تعالى كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي مرثد الغنوي أن النبي ﷺ قال : « **لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها** » فلا يجوز أن يصلى إلى شيء من القبور ، لا قبور الأنبياء ولا غيرهم ، لهذا الحديث الصحيح . ولا خلاف بين المسلمين أن لا يشرع أن يقصد الصلاة إلى القبر ، بل هذا من البدع المحدثة وكذلك قصد شيء من القبور لا سيما قبور الأنبياء والصالحين عند الدعاء وإذا لم يجز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء الميت نفسه أولى أن لا يجوز ، كما أنه لا يجوز أن يصلى مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له بطريق الأولى ، فعلم أنه لا يسأل الميت شيئاً ، لا يطلب منهه أن يدعو الله ولا غير ذلك ، ولا يجوز أن يشكي إليه شيء من مصاب الدنيا والدين ، ولو جاز أن يشكي إليه ذلك في حياته ، فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك ، وهذا يفضي إلى الشرك ، لأنه في حياته مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له في ذلك من الأجر والثواب ، وبعد الموت ليس مكلفاً ، بل ما يفعله من ذكر لله تعالى ودعاء ونحو ذلك ـ كما أن موسى يصلي في قبره ، وكما صلى الأنبياء خلف النبي ﷺ ليلة المعراج ببيت المقدس ، وتسبيح أهل الجنة والملائكة ـ فهم يتمتعون بذلك ، وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم ويقدره له ، ليس هو من باب التكليف الذي يمتحن به العباد .

وحينئذ فسؤال السائل للميت لا يؤثر في ذلك شيئاً ، بل ما جعله الله فاعلاً له هو يفعله وإن لم يسأله العبد ، كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به ، وهم إنما يطيعون أمر ربهم لا يطيعون أمر مخلوق ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَقَالُوا اتخذَ الرحمَنُ ولداً سبحانهُ بل عبادٌ مُكرمُون * لا يسبِقُونهُ بالقول وهُم بأمره يعملُون** ﴾[1] فهم لا يعملون إلا بأمره سبحانه وتعالى .

ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته ، فإن بيته كانت الصلاة فيه مشروعة ، وكان يجوز أن يجعل مسجداً . ولما دفن فيه حُرم أن يتخذ مسجداً كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « **لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم**

(١) سورة الأنبياء ، الآيتان : (٢٦ و ٢٧) .

مساجد » يحذِّر ما فعلوا . ولولا ذلك لأبرز قبرُه ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً . وفي صحيح مسلم وغيره عنه ﷺ أنه قال : « **إن من كان قبلكم كانوا يتّخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك** » . وقد كان ﷺ في حياته يُصلِّي خلفه ، وذلك من أفضل الأعمال . ولا يجوز بعد موته أن يصلي الرجل خلف قبره . وكذلك في حياته يُطلب منه أن يأمر وأن يفتي وأن يقضي ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته . وأمثال ذلك كثيرة .

وقد كره مالك وغيره أن يقول الرجل : زرتُ قبر رسول الله ﷺ لأن هذا اللفظ لم يرد . والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب . وهذا اللفظ صار مشتركاً في عرف المتأخرين يراد به الزيارة البدعية التي في معنى الشرك ، كالذي يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به أو يسأل الله عنده .

والزيارة الشرعية هي أن يزوره لله تعالى للدعاء له ، والسلام عليه كما يصلي على جنازته . فهذا الثاني هو المشروع ، ولكن كثيراً من الناس لا يقصد بالزيارة إلا المعنى الأول ، فكره مالك أن يقول : زرتُ قبره . لما فيه من إيهام المعنى الفاسد الذي يقصده أهل البدع والشرك .

الثالثة : أن يقال : أسألك بفلان أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهيٌّ عنه . وتقدم أيضاً أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة ، بل عدلوا عنه إلى التوسل بدعاء العباس وغيره .

وقد تبين ما في لفظ التوسل من الاشتراك بين ما كانت طائفة من الصحابة تفعله وبين ما لم يكونوا يفعلونه ، فإن لفظ التوسل والتوجه في عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته . ولهذا يجوز أن يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وإن كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبي ﷺ أنه قال : « **إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور** » . أو فاستعينوا بأهل القبور . فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة . وقد قال تعالى : ﴿ **وتوكل على الحيِّ الذي لا يمُوتُ وسبِّح بحمده وكفى به بذُنُوب عباده خبيراً** ﴾[1] وهذا مما

(١) سورة الفرقان ، الآية : (٥٨) .

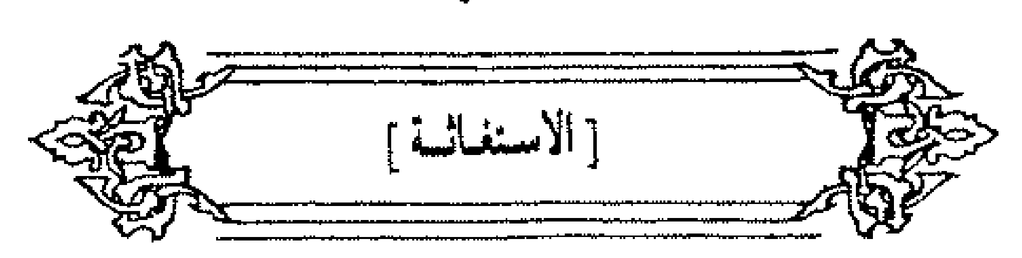
يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه غير مشروع ، وقد نهى النبي ﷺ عما هو أقرب من ذلك ـ عن اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك ـ ولعن أهله تحذيراً من التشبه بهم ، فإن ذلك أصل عبادة الأوثان . كما قال تعالى : ﴿ **وقالُوا لا تذرُون آلهتكُم ولا تذرُن ودّاً ولا سُواعاً ولا يغُوث ويعُوق ونسراً** ﴾[٢] فإن هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروهم ، ثم اتخذوا الأصنام على صورهم ، كما تقدم ذكره ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف .

وهذا الذي نهى عنه النبي ﷺ من هذا الشرك هو كذلك في شرائع غيره من الأنبياء : ففي التوراة أن موسى عليه السلام نهى بني إسرائيل عن دعاء الأموات وغير ذلك من الشرك ، وذكر أن ذلك من أسباب عقوبة الله لمن فعله . وذلك أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد وإن تنوعت شرائعه ، كما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « **إنا معشر الأنبياء ديننا واحد** » وقد قال تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعلموا صالحاً إني بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾[٣] وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره من الأولين والآخرين ، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

---

(١) سورة نوح ، الآية : (٢٣) .
(٢) سورة الشورى ، الآية : (١٣) .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيات : (٥١ ـ ٥٣) .
(٤) سورة الروم ، الآيات : (٣٠ ـ ٣٢) .

فصل



[الاستغاثة]

وإذا تبين ما أمر الله به ورسوله ، وما نهى الله عنه ورسوله ـ في حق أشرف الخلق وأكرمهم على الله عز وجل ، وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والنبيين ، وأفضل الأولين والآخرين ، وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاهاً عند الله تبارك وتعالى ـ تبين أن من دونه من الأنبياء والصالحين أولى بأن لا يشرك به ، ولا يتخذ قبره وثناً يعبد ، ولا يدعى من دون الله لا في حياته ولا في مماته.

ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ولا الميتين ، مثل أن يقول : يا سيدي فلاناً أغثني وانصرني وادفع عني ، أو أنا في حسبك ، ونحو ذلك . بل كل هذا من الشرك الذي حرَّم الله ورسوله ، وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم ـ لما كانوا من جنس عبّاد الأوثان ـ صار الشيطان يضلهم ويغويهم ، كما يضل عبّاد الأصنام ويغويهم فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به ، وتخاطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة ، كما تخاطب الشياطينُ الكهان ، وبعضُ ذلك صدق ، لكن لا بد أن يكون في ذلك ما هو كذب بل الكذب أغلب عليه من الصدق، وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم ، وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه ، فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء من الغيب حتى فعل ذلك ، أو يظن أن الله تعالى صوَّر ملكاً على صورته فعل ذلك ، ويقول أحدهم : هذا سرُّ الشيخ وحاله ! وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليظل المشرك به المستغيث به ، كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم ، كما كان ذلك في مشركي العرب ، وهو اليوم موجود في

المشركين من الترك والهند وغيرهم .

وأعرفُ من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم ، فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ورفعنا عنهم ، ولما حدثوني بذلك بينتُ لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين . وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدةُ الأوثان . وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم العلاّس يرون أيضاً من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضي بعض حوائجهم .

وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الأنبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبي ﷺ غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور أو يحكي لهم بعض هذه الأمور فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتي إلى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث بهه فينزل عليه من الهواء طعام أو نفقة أو سلاح أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه ، وإنما ذلك كله من الشياطين . وهذا من أعظم الأسباب التي عبدت بها الأوثان . وقال الخليل عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ﴾[1] كما قال نوح عليه السلام ، ومعلوم أن الحجر لا يُضِلُّ كثيراً من الناس إلا بسبب اقتضى ضلالهم ، ولم يكن أحد من عبّاد الأصنام يعتقد أنها خلقت السموات والأرض ، بل إنما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لأسباب : منهم من صوّرها على صور الأنبياء والصالحين ، ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر ، ومنهم من جعلها لأجل الجن ، ومنهم من جعلها لأجل الملائكة . فالمعبود لهم في قصدهم وهم إنما هو للملائكة والأنبياء والصالحين أو الشمس أو القمر وهم في نفس الأمر يعبدون الشياطين ، فهي التي تقصد من الإنس أن يعبدوها وتظهر لهم ما يدعوهم إلى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُم كَانُوا

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيتان : (٣٥ و ٣٦) .

يَعْبُدُون * قَالُوا سُبْحَانَكَ أنتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِـمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُـمْ بِهِـمْ مُؤمِنُون ﴾[1] .

وإذا كان العابد ممن لا يستحل عبادة الشياطين أوهموه أنه إنما يدعو الأنبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به . وأما إن كان ممن لا يحرّم عبادة الجن عرّفوه أنهم الجن . وقد يطلب الشيطان الممثل له في صورة الإنسان أن يسجد له أو أن يفعل به الفاحشة أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر ، أو أن يقرّب لهم الميتة ، وأكثرهم لا يعرفون ذلك ، بل يظنون أن من يخاطبهم إما ملائكة وإما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب ، ويظنون أن رجال الغيب أولياء لله غائبون عن أبصار الناس . وأولئك جن تمثلت بصور الإنس أو رؤيت في غير صور الإنس ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كان رجالٌ مِنَ الإنسْ يَعُوذُونَ بِرجال مِنَ الجنّ فَزادُوهُم رَهقاً ﴾[2] كان الإنس إذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه ، وكانت الإنس تستعيذ الجن فصار ذلك سبباً لطغيان الجن ، وقالت : الإنس تستعيذ بنا ! .

وكذلك الرقى والعزائم الأعجمية هي تتضمن أسماء رجال من الجن يُدْعون ويُستغاث بهم عليهم بمن يعظمونه ، فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور . وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمان ، وما كَفَرَ سليْمانُ وَلكنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاس السِّحْرَ وما أُنْزِل عَلَى المَلَكين بِبابِلَ هارُوتَ وماروتَ ، وما يُعَلِّمانِ مِنْ أحَد حَتَّى يَقُولا إنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرءِ وَزوجِهِ ، وَمَا هُم بِضارِّين بِهِ مِنْ أَحَد إلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُم ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لمنِ اشْتَراهُ ما لَهُ في الآخِرة مِنْ خَلاق ، ولَبِئس ما شَروا بِهِ أَنْفُسهُم لو كانُوا يَعْلَمُون ﴾[3] وكثير من هؤلاء لا يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به إلى مكة وغيرها ،

---

(١) سورة سبأ ، الآيتان : (٤٠ و ٤١) .
(٢) سورة الجن ، الآية : (٦) .
(٣) سورة البقرة ، الآية : (١٠٢) .

ويكون مع ذلك زنديقاً يجحد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله ، ويستحل المحارم التي حرَّمها الله ورسوله ، وإنما يقترن به أولئك الشياطين لما فيه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى إذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله ، فارقته تلك الشياطين ، وذهبت تلك الأحوال الشيطانية من الاخبارات والتأثيرات . وأنا أعرف من هؤلاء عدداً كثيراً بالشام ومصر والحجاز واليمن ، وأما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها ، وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم .

وإنما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التي أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها ، فحيث قوي الإيمان والتوحيد ونور الفرقان والإيمان وظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية ، وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال الشيطانية ، والشخص والواحد الذي يجتمع فيه هذا وهذا الذي تكون فيه مادَّة تمدُّه للإيمان ومادَّة تمدُّه للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال . والمشركون الذين لم يدخلوا في الإسلام مثل البخشية والطونية والبُدّى ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون للكفار من الترك والهند والخُطا وغيرهم تكون الأحوال الشيطانية فيهم أكثر ، ويصعد أحدهم في الهواء ويحدثهم بأمور غائبة ، ويبقى الدف الذي يغني لهم به يمشي في الهواء ، ويضرب رأس أحدهم إذا خرج عن طريقهم ، ولا يرون أحداً يضرب له ، ويطوف الإناء الذي يشربون منهم عليهم ولا يرون من يحمله ، ويكون أحدهم في مكان فمن نزل منهم عنده ضيَّفه طعاماً يكفيهم ، ويأتيهم بألوان مختلفة . وذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القريبة منه أو من غيرها تسرقه وتأتي به . وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركاً أو ناقص الإيمان من الترك وغيرهم ، وعند التتار من هذا أنواع كثيرة .

وأما الداخلون في الإسلام إذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم ، فلهم من الأحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضي الشيطان . ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل . يُحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم إذا حاذى المواقيت ، ولا يبيت بمزدلفة ، ولا يطوف طواف الإفاضة ، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الأولياء ، ولا يعلم أن هذا من تلاعب الشيطان به ، فإن مثل هذا

الحج ليس مشروعاً ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين . ومن ظن أن هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل . ولهذا لم يكن أحد من الأنبياء والصحابة يفعل بهم مثل هذا ، فإنهم أجلُّ قدراً من ذلك . وقد جرت هذه القضية لبعض من حُمِل هو وطائفة معه من الاسكندرية إلى عرفة ، فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج فقال : كتبتموني ؟ قالوا : أنت لم تحج كما حج الناس ، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذي يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم في الهواء فقال لهم : هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لأنكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله .

ودين الإسلام مبني على أصلين ، على أن يُعبد الله وحده لا يُشرك به شيء ، وعلى أن يُعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ . وهذان هما حقيقة قولنا : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » . فالإله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاء وإجلالاً وإكراماً . والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يُعبد إلا الله ، ولا يُدعى إلا الله ، ولا يُخاف إلا الله ، ولا يُطاع إلا الله .

والرسول ﷺ هو المبلّغ عن الله تعالى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرّمه ، والدين ما شرعه . والرسول ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ، ووعيده ، وتحليله وتحريمه ، وسائر ما بلغه من كلامه . وأما في إجابة الدعاء ، وكشف البلاء ، والهداية والإغناء ، فالله تعالى هو الذي يسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرّهم ونجواهم ، وهو سبحانه قادر على إنزال النعم ، وإزالة الضر والسقم ، من غير احتياج منه إلى أن يعرّفه أحد أحوال عباده ، أو يعينه على قضاء حوائجهم . والأسباب التي بها يحصل ذلك هو خلقها ويسرها ، فهو مسبِّب الأسباب ، وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّموات والأرض ، كُلَّ يومٍ هُوَ في شأن ﴾[1] فأهل السموات يسألونه وأهل الأرض يسألونه ، وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا ، ولا يغلطه اختلاف أصواتهم ولغاتهم ، بل يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف

---

(١) سورة الرحمن ، الآية : (٢٩) .

اللغات ، على تفنن الحاجات ، ولا يبرمه إلحاح الملحّين ، بـل يحبُّ الإلحاح في الدعاء .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا سألوا النبي ﷺ عن الأحكام أُمر رسول الله ﷺ بإجابتهم كما قال تعالى : ﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج** ﴾[1] ، ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون ، قل العفو** ﴾[2] ، ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير** ﴾[3] إلى غير ذلك من مسائلهم . فلما سألوه عنه سبحانه وتعالى قال: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾[4] فلم يقل سبحانه «فقل» بل قال تعالى: ﴿**فإني قريب أُجيب دعوة الداع**﴾ فهو قريب من عباده كما قال النبي ﷺ في الحديث لما كانوا يرفعون أصواتهم بالذكر والدعاء فقال: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً ، إن الذي تدعونه أقربُ إلى أحدكم من عنق راحلته » وقال النبي ﷺ : « **إذا قام أحدكم إلى صلاته فلا يبصق قبل وجهه فإن الله قبل وجهه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ، ولكن عن يساره وتحت قدمه** » وهذا الحديث في الصحيح من غير وجه .

وهو سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته . وهو سبحانه غني عن العرش وعن سائر المخلوقات لا يفتقر إلى شيء من مخلوقاته ، بل هو الحامل بقدرته العرش وحملة العرش .

وقد جعل تعالى العالم طبقات ، ولم يجعل أعلاه مفتقراً إلى أسفله ، فالسماء لا تفتقر إلى الهواء ، والهواء لا يفتقر إلى الأرض ، فالعليُّ الأعلى ربُّ السموات والأرض وما بينهما الذي وصف نفسه بقوله تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره**

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١٨٩) .
(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢١٩) .
(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢١٧) .
(٤) سورة البقرة ، الآية : (١٨٦) .

والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[1] أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء بحمل أو غير حمل ، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، الذي كل ما سواه مفتقر إليه ، وهو مستغن عن كل ما سواه .

وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع ، قد بين فيه التوحيد الذي بعث الله به رسوله قولاً وعملاً ، فالتوحيد القولي مثل سورة الإخلاص ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والتوحيد العملي ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك ، وقد كان أيضاً يقرأ في ركعتي الفجر وركعتي الطواف : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾[2] الآية . وفي الركعة الثانية بقوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[3] فإن هاتين الآيتين فيهما دين الإسلام ، وفيهما الإيمان القولي والعملي ، فقوله تعالى : ﴿ آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ إلى آخرها يتضمن الإيمان القولي والإسلام . وقوله : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ ـ الآية إلى آخرها ـ يتضمن الإسلام والإيمان العملي ، فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده الإسلام والإيمان وهما في هاتين الآيتين ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فهذا آخر السؤال والجواب الذي أحببت إيراده هنا بألفاظه لما اشتمل عليه من المقاصد المهمة والقواعد النافعة في هذا الباب ، مع الاختصار . فإن التوحيد هو سرُّ القرآن وكتب الإيمان . وتنويع العبارة بوجوه الدلالات من أهم الأمور وأنفعها للعباد ، في مصالح المعاش والمعاد ، والله أعلم .

تم الكتاب ولله الحمد والمنة

---

(١) سورة ازمر ، الآية : (٦٧) .

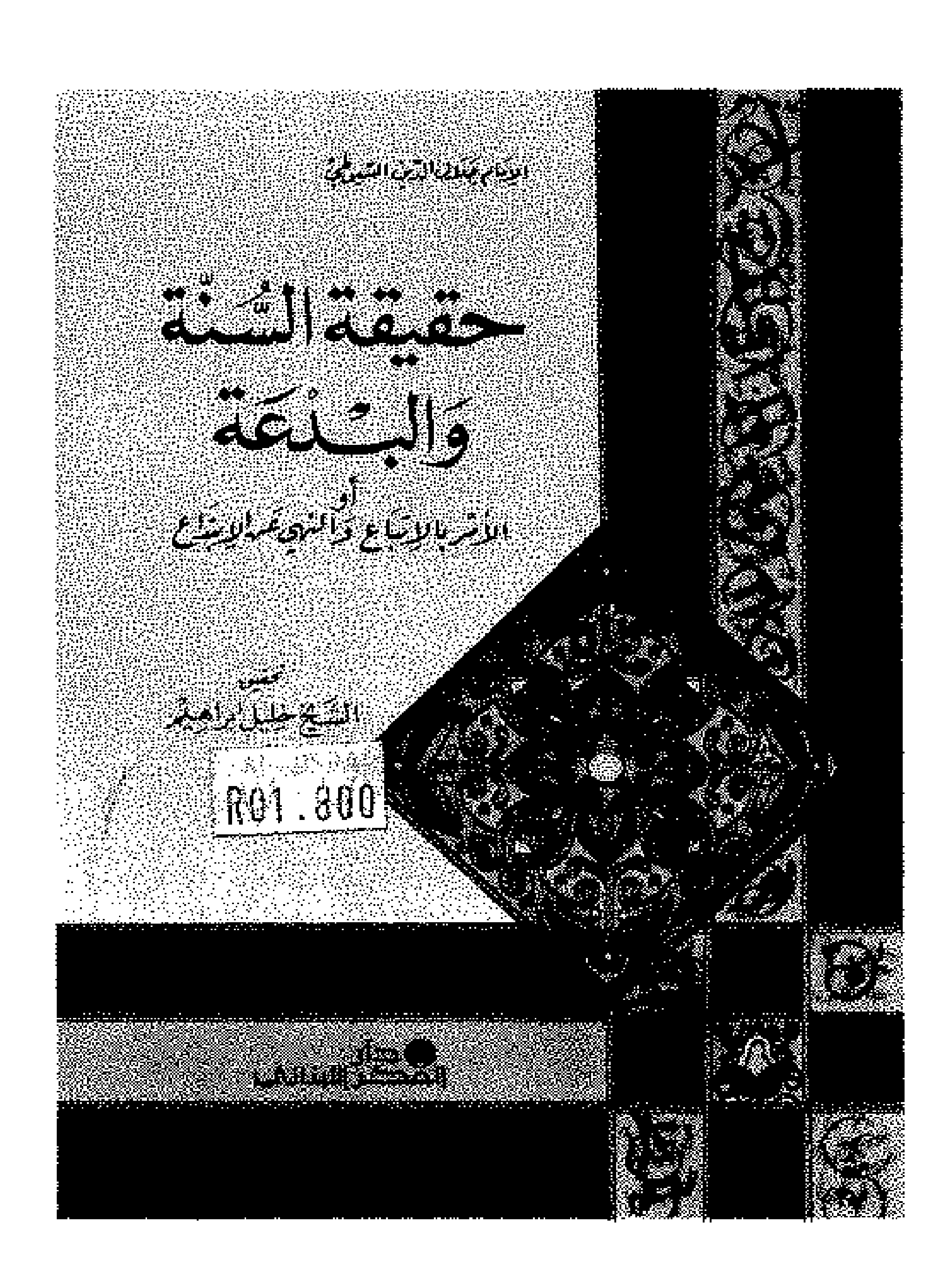
(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٣٦) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : (٦٤) .

فهرس

الموضوع	الصفحة

صدر حديثاً


الإمام جلال الدين السيوطي
حقيقة السنة والبدعة
أو
الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع
تحقيق
الشيخ خليل ابراهيم
دار الفكر اللبناني